

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي و البحث العلمي

كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية

قسم الفلسفة



جامعة محمد بوضياف - المسيلة
Université Mohamed Boudiaf - M'sila



جامعة محمد بوضياف - المسيلة
Université Mohamed Boudiaf - M'sila

الموضوع

السقوط الوجودي للإنسان عند القديس أوغسطين

مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماستر في الفلسفة

إشراف الأستاذة:

مزواد نسبية

إعداد الطالبة:

بن يطو يمينية

السنة الجامعية (2017/2016 م)



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إهداء

أهدي عملي البسيط هذا الى كل من:
والدي الغالي (رحمه الله و اسكنه فسيح جناته)

الى السيدة العظيمة (أمي) حفظها الله لي
الى كل اخوتي الذكور

(علاوة، حميد، محمد، راجح، عبد الصمد)

إلى اخوتي البنات

(نعيمه، مريم، حلیمه، زينب، فطيمه، جويده)

إلى كل صديقاتي وأصدقائي.

أفص بالذكر منهم نسرين، أمينه، أميمه، ماجده

مراد، فوزي، الهاشمي

شكر و عرفان

أولا نحمد الله ونشكره على إتمام هذا العمل
ثانياً أتقدم بجزيل الشكر والعرفان والتقدير إلى أستاذتي الكريمة:

مزولة نسبية

على كل جهودها التي بذلتها معنا أنا وأصدقائي

لأجل إنجاز هذا العمل

أشكرك، أنا ممتنة لك على كل ما قدمته لي خصوصاً
التوجيهات العلمية القيمة والتي كانت أفضل عون لي في
إعداد هذه المذكرة

تقدرة

تعدد المشكلات والقضايا الفلسفية بتعدد مشاكل الإنسانية، فالفلسفة تُعنى بدراسة قضايا الحياة باختلافها وتنوعها، إذ تتزل من طابعها النظري المجرد لتلمس الأمور الحياتية اليومية، فتصير بذلك مهمة علاجية، فباعتماد الفلسفة كعلاج يجعل منها فناً لتدبير الحياة، فالفلسفة في خدمة الإنسان.

ومن المجالات والقضايا التي خاضت فيها الفلسفة وحاولت الكشف عن نوافذ عديدة مظلة منها، نجد على سبيل المثال، السياسة والأخلاق وكذا الدين، هذا الأخير الذي ظهرت من خلاله فلسفات مختلفة كالفلسفة الإسلامية والفلسفة المسيحية، الفلسفة المسيحية هذه التي عنت بمعالجة القضايا المسيحية والوصول إلى حلول لمشكلات، ورغم أن الفلسفة مجالها العقل، والمسيحية مجالها الإيمان إلا أن العلاقة بينهما ظلت تتداخل أحياناً إلى حد التطابق عند بعض المفكرين، وتتنافر أحياناً أخرى إلى درجة استحالة الجمع بينهما، لكن رغم هذا التنافر إلا أنه لا نستطيع أن ننكر أن الفلسفة المسيحية استطاعت أن تغير ولو بقليل في الفكر الإنساني داخل الحضارة المسيحية، فالاهتمام بالفلسفة داخل أي حضارة يؤصل إنتاج المفاهيم المساعدة في صياغة الإنسان، وهنا تبرز أهمية الفلسفة المسيحية، على اعتبار أنها تهدف إلى الرفع من شأن الإنسان المسيحي وحل مشكلاته التي ارتبطت بالقضايا المسيحية، هذه الأخيرة التي حاول رجال دينها الفلاسفة الاستدلال عقلياً على معتقداتها تماشياً ومتطلبات العصر التي فرضت عليهم أن يدجوا الفلسفة ضمن فكرهم، إذ تتنوع القضايا المسيحية كقضية السقوط الوجودي للإنسان، كونها تعنى بالجانب الأنطولوجي له، فالسقوط إشكالية عالجهها كل رجال الدين المسيحيين، كونها الحقيقة التي ذكرها الكتاب المقدس (الإنجيل)، واستدلوا عليها بما أوتوا من براهين عقلية فلسفية، وأسرار مسيحية، لأن كل فيلسوف في الميزان القويم هو المحب لرؤية الحقيقة، كما أن الفلسفة هي محصلة التأريخ للفلاسفة أنفسهم الذين برزت أيقوناتهم التنويرية عبر الفكر المسيحي، والذين من أشهرهم وأعظمهم نجد "القديس أوغسطين"، إذ كان حدقاً في الفكر فجمعه من طرفيه، طرف النظر (التنظير)، وطرف التجربة الواقعية (التطبيق)، فاعتبرت فلسفته قمة الفلسفة المسيحية في العصر الكنسي، إذ كان جامعاً لكل ما سبقه من تفكير مسيحي في القرون التي سبقتة وماتلاها، واستطاع وبذكاء قيادة الكنيسة وصياغة العقيدة وخدمة الإنسان المسيحي، مدافعاً عن الإيمان.

وبما أن فكرة السقوط والخطيئة قد مست الإنسان وحياته من كل جوانبها الأخلاقية والسياسية والاجتماعية والتاريخية والدينية، كان أن كرّس القديس أوغسطين كل جهوده لمعالجة مشكلة الخطيئة وإيجاد

مقدمة

حل للإنسان الساقط، كونه رجل دينٍ من جهة وفيلسوفاً من جهة ثانية، ولنهم فكر أوغسطين حول الخطيئة وسقوط الإنسان كان علينا أن نطرح الإشكال التالي:

– ماهي البنية الفلسفية الدينية التي أسست لإشكالية السقوط الوجودي للإنسان؟

ولأجيب عن هذه الإشكالية، كان لابد علي أولاً أن أجيب على بعض المشكلات التي تخدم الإشكالية الرئيسية، وتتمثل أساساً في:

– ما مفهوم الخطيئة عند أوغسطين؟ ماهي أسبابها؟

– كيف ارتبطت الخطيئة بسقوط الإنسان؟ وكيف ارتبطت بالأخلاق؟ و السياسة؟

– كيف فسر التاريخ على ضوء الخطيئة وسقوط الإنسان؟

وقد جذبتني إلى موضوعي هذا مجموعة من الدوافع كان منها:

دوافع موضوعية تتمثل في:

– أهمية الموضوع "الخطيئة والسقوط"، إذ أنه موضوع يمس كل الديانات، وليس حكراً على المسيحية فقط.

– ان موضوع السقوط هذا والخطيئة يلم بكل فلسفة أوغسطين تقريباً، إذ يطرق جل المواضيع التي عاجلها في فكره ككل من (معرفة، فضيلة، نفس وخلود...إلخ).

– باعتبار أنه ليست هناك الكثير من الكتب التي عاجلت فكرة "الخطيئة والسقوط" بصورة مفصلة، إذ يكاد ينعدم لدي تعريف الخطيئة عند أوغسطين، في عبارة صريحة وواضحة، في مختلف المراجع، فلو لم أقم باستنتاج ذلك من مصدره هو في حد ذاته، لما توفر لدي ذلك.

هذا بالنسبة للدوافع العامة، أما ما تعلق منه بالدوافع الشخصية فقد تمثلت فيما يلي:

– الرغبة في الاطلاع، واكتشاف بعض الأسرار المسيحية.

مقدمة

هذا على العموم ما دفعني إلى اختيار هذا الموضوع، وللإجابة عن إشكالية هذا البحث، وما تفرع عنها من مشكلات كان عليّ أن أرسم خطة ملائمة لذلك، فكان أن قسمت العمل إلى ثلاثة فصول ومقدمة وخاتمة.

أما "الفصل الأول" فقد عالج فكرة الخطيئة والأخلاق، كيف أن الخطيئة كانت سببا في انحلال الأخلاق وتبدها بعد أن كانت في بادئ الخلق جيدة، فكان لنا أن تطرقنا إلى فكرة الخلق أولا، ثم مفهوم الخطيئة، وبعد ذلك أسباب هذه الخطيئة التي تمثلت في الإرادة والحرية، وبعد ذلك، أي بعد تبدد الأخلاق بسبب الخطيئة، ظهور الشر في هذا العالم، لهذا تطرقت إلى فكرة الخير والشر.

"الفصل الثاني" كان كنتيجة ضرورية للفصل الأول، فبعد الخطيئة وسقوط الإنسان إلى عالم الأرض سيعيش الإنسان جانبا آخر، واقعيًا، فتظهر الدولة وتظهر بذلك السلطة وبالتالي السياسية، وبهذا فقد احتوى هذا الفصل على كل ما تعلق منه بالخطيئة وما ترتب عنها في الجانب السياسي بذكرى للدولة، العدالة، الرق الملكية، الحرب، القانون، السلطة...إلخ.

- "الفصل الثالث" كان كدراسة عامة لتأثيرات الخطيئة على المسار التاريخي، فالخطيئة كانت في أول التاريخ ببناء المدينتين وارتكاب الخطيئة، ثم مساره بتطور المدينتين، ثم نهاية التاريخ.

- أما في الأخيرة فقد طويت البحث بخاتمة اشتملت على مجموعة من النتائج الجزئية.

وليكون عملي هذا الذي خططت له ممنهجا، كان ان اتبعت مجموعة من المناهج، أهمها: المنهج التحليلي، الذي استعملته في تحليل بعض نصوص الكتاب المقدس وبعض نصوص كتب القديس أوغسطين التي احتوت على بعض اللبس، بسبب أنها كتب مترجمة بالإضافة إلى أنها من تأليف إنسان من حقبة بعيدة عن زمننا هذا.

بالإضافة إلى المنهج التاريخي، بالبحث في كتب التاريخ، والكتاب المقدس، عن تاريخ المسيحية، وتطور العرق المسيحي من آدم إلى آخر إنسان وهو المسيح بعد قيامته.

بالإضافة إلى المنهج المقارن في مقارنة بعض النصوص في الكتاب المقدس نفسه، والمقارنة من مرجع إلى آخر.

مقدمة

ولإنجاز هذا البحث، اعتمدت على مجموعة من المصادر والمراجع، فكانت أهم المصادر التي تناولتها الكتاب المقدس (الإنجيل) ومدينة الله، خاصة المجلد الثاني منهم، فقد خدمني كثيرا في موضوعي هذا إذ احتوى على كل ما يتعلق بالخطيئة، بالإضافة إلى المصدر الآخر " الاعترافات".

أما المراجع، فكان أهمها تلك التي احتوت على أوغسطين بصفة خاصة، مثل: كتاب القديس أوغسطينس والأوغسطينية لصاحبه "هنري - ايرينييه مارو"، ولاهوت التاريخي عند القديس أوغسطين لزيب محمود الخضيرى، ومراجع أخرى مثل تاريخ الفلسفة الأوروبية في العصور الوسطى ليوسف كرم.

ومن دون شك فإنه قد اعترضني خلال هذا العمل مجموعة من الصعوبات كان أهم ما أذكر منها:

- ان جل فلسفة أوغسطين تعتمد على الكتاب المقدس، لذلك كان لازما علي أن اعتمد عليه أنا الأخرى، وأن أقرأه جيدا، هذا ما كان صعبا عليّ، لأن الكتب المقدسة تمتاز بالغموض بعض الشيء خصوصا وان الإنجيل، كتاب يحتوي على كلام يبدو كالأسطورة، غامض يحتوي على اللبس.

- تشابه الأفكار بين المراجع التي تناولت فكر أوغسطين.

- قلة مؤلفات أوغسطين المترجمة إلى العربية، فأغلبها وأهمها لم تترجم بعد.

- أغلب المراجع المتوفرة كتبت عن المشكلات التي عاجلها أوغسطين باختصار، خاصة في الخطيئة وموضوع التاريخ عند أوغسطين، إذ أدى بي هذا إلى بذل جهود مضاعفة لاستنتاج ما يجب إدراجه في موضوعي مثلا نسل آدم عبر التاريخ خلال المسار يمكن أن نقول بأن ذكره يكاد يكون منعدما في المراجع، إذ لم استطع أن أكتب عنه إلا بالعودة إلى المصدر (مدينة الله) والكتاب المقدس، وأستنتج ذلك.

- صعوبة فكر القديس أوغسطين إذ يبدو ظاهره بسيطا ومفهوما، في حين أن أوغسطين يرمي بكلامه إلى ما هو أعمق، فأتوه بين بساطة سطح نصه وبين غموض عمقه.

الفصل الأول

الخطيئة والأخلاق

تمهيد

المبحث الأول: فكرة الخلق

المبحث الثاني: مفهوم الخطيئة

المبحث الثالث: الحرية والإرادة

المبحث الرابع: الخير والشر

خلاصة الفصل

تمهيد:

لقد عنى القديس "أوغسطين" بالعديد من المشاكل كان من بينها الأخلاق، ولكونه لاهوتيا فقد ربط المشكلة الأخلاقية بالجانب الديني، وفسرها تفسيراً روحانياً، فقد اتصلت مشكلة الأخلاق عنده بالألوهية أو الله، فالله مصدر الأخلاق، وبالتالي فإن كل ما يخلقه الله فهو أخلاقي بالطبيعة، أما من جانب فلسفي فقد فسر ذلك رابطاً الأخلاق بنظريته حول المدينتين، مدينة الله، ومدينة الأرض، وما تعلق بهما من الوقوع في الخطيئة وسقوط الإنسان، فبعد أن كان الإنسان في مدينة الله ينعم بالخيرات التي منى الله عليه بها، هبط بسبب إثمه إلى الأرض، وكان ذلك عقاب الرب للإنسان المخطئ عن فعلته بعد أن تبددت أخلاقه التي جُلبى عليها، لكن بما أن الله مصدر الأخلاق كما يقر أوغسطين، وبما أن الإنسان من خلق الله، فكيف وقع الإنسان في الخطيئة؟ وكيف كانت هذه الخطيئة سبباً في انحراف الأخلاق؟

المبحث الأول: فكرة الخلق:

فسر القديس "أوغسطين*" خلق الكون بطريقة متسلسلة بناء على ما ذكر في الكتاب المقدس واستطاع وبطريقة ذكية أن يستنتج كيفية حدوث عملية الخلق من بدايتها إلى نهاية العملية، وان يفسر كل لبس دُكر في الإنجيل حول زمن وكيفية الخلق.

- فكيف كانت نظرتة حول فكرة الخلق؟

أولاً: الخلق من العدم

آمن القديس أوغسطين إيماناً جازماً بوجود الله، إذ يرى أن هذا الوجود في نظامه وجماله لن يكون إلا من صنع خالق عظيم جدير، له تلك القدرة على هذا الخلق العظيم من سماء وأرض وكواكب وغيره من مكونات هذا الكون الذي يسوده الانسجام¹ فالعالم المخلوق إنما هو نتاج أو ثمرة فعل إلهي، ولهذا فهو يقوم على نظام عقلي محكم منبثق عن حكم الله¹.

فالله قد خلق هذا العالم، وهو من صنيعه، لكن أوغسطين في تفسيره لطبيعة الموجودات تعرض إلى إشكالية كيفية صدور العالم إذا ما كان صادراً من ذات الله صدوراً ضرورياً أو أن هذا الوجود خُلق من العدم؟

"ينفي أوغسطين صدور العالم من ذات الله صدوراً ضرورياً أزلتياً، لأن القول بذلك يلزم عنه أن الذات الإلهية تتجزأ وأن جزء منها يصير محدوداً متغيراً وهذا محال، لأن الله بسيط لامتناه ثابت كامل"².

وبهذا فإن العالم قد صدر من العدم بفعل من الله أي بفعل الخلق، واحداث هذا الكون العظيم لا يمكن أن يكون إلا من فعل رب قادر عظيم ذو حكمة عالية³ وبالتالي هنا العالم لا يكون نتيجة لقدرة أعمى وأيضاً يكون صنيع حكمة عليا تعلم كل ما تصنع وتعرف كل ما تفعل وتستطيع أن تعرفه وتفعله لأنها تعرفه منذ الأول³، فالعالم من خلق الله إذن، هو صورة الله، يقول أوغسطين: "سألت الأرض هل أنت ربي؟

*- هو أوراليوس أوغوستينوس أشهر آباء الكنيسة اللاتينية، ولد في طاجسكا (سوق أهراس) في 13 تشرين الثاني 354م، مات في إيبونا في 14 آب 430 م، اعتنق المسيحية متأخراً، وخاض في الفلسفة بعد أن تأثر ببعض الفلاسفة مثل أفلاطون وشيشرون، من أشهر مؤلفاته مدينة الله، الاعترافات. أنظر: جورج طرايشي: معجم الفلاسفة، (دار الطليعة، بيروت، ط3، 2006)، ص ص: 117-118.

¹ - ترانتي وماركوس: مقالات في فلسفة العصور الوسطى، تر: ماهر عبد القادر محمد، (دار المعرفة الجامعية، عمان، د.ط، 1997)، ص: 65.

² - حافظ أشرف: معالم الفكر الأوروبي في العصر الوسيط، (دار طيبة، القاهرة، ط1، 2004)، ص: 52.

³ - إميل برهيه: الفلسفة الهلنستية والرومانية، تر: جورج طرايشي، (دار الطليعة، لبنان، ط1، دت)، ص: 70.

قالت لي: لست إلهك، كذلك أجنبي كل حي على سطحها، سألت البحر وأغواره والكائنات الحية التي تسرح فيه وتموج فأجابني لسنا إلهك، بحثت عنه في الأعالي وسألت رياح الجو فأجابني مملكة الهواء وكل ما فيها: لسنا إلهك، سألت السماء والشمس والقمر والنجوم فأجابت كلها: لسنا الإله الذي تبحث عنه، إذ ذاك قلت للكائنات كلها التي تحيط بأبواب حواسي حديثي عن إلهي طالما لست إلهي، قولي لي عنه شيئاً فهتفت جميعها بصوت قوي: هو خالقنا"¹.

إن الله هو الخالق إذاً، إذ يرى أوغسطين أن الخلق راجع إلى خيرية الله، فالله خيرٌ يصنع كل ما هو خير فالعالم فيض من خير الله، ودليل على إرادة الله، ومرتب حسب عقل الله.²

فالله بإرادته خلق الوجود، وبعقله جعله في نظام مرتب إذ "ليس هناك من سبب للخلق سوى مشيئة الله".³

ثانياً: كيفية الخلق

أما بالنسبة لكيفية الخلق فإن أوغسطين يرى أن الكتاب المقدس يذكر أن الله قام بعملية الخلق في ستة أيام، ثم ارتاح في اليوم السابع، إذ خلق في أول الأمر السماوات والأرض،" في البدء خلق الله السماء والأرض"⁴، وجاء فيما بعد خلقه "للفلك الوسط بين المياه العليا والسفلى، المسمى سماء، هو اليوم الثاني وإلى معرفة الأرض والبحر وسائر أنواع النباتات المتجذرة في الأرض، اليوم الثالث، وإلى معرفة نيري الكون وسائر الاجرام السماوية هو اليوم الرابع، إلى معرفة الحيوانات والطيور والأسماك المولودة من المياه هو اليوم الخامس، وإلى معرفة سائر الحيوانات الأرضية والإنسان نفسه هو اليوم السادس."⁵

إن هذا التعبير عن خلق الله للكون في ستة أيام إنما هو تفسير وتفصيل للخلق فقط لذلك ذكر الخلق في الزمان، لكن الله أجدر من أن يقوم بعملية الخلق في الزمان مثل البشر، فهو منزه وعظيم قادر على كل شيء، وباعتبارنا لعملية الخلق على أنها تتم في ستة أيام مثل ما ذكر الكتاب المقدس إنما هو إنقاص من شأن قدرة الله، لذلك لا بد من تأويل النص الديني الذي ينص على فكرة الخلق، إذ لو عدنا إلى النص الديني نجد أن خلق الكواكب وسائر الاجرام السماوية كان في اليوم الرابع، معنى هذا أن الأيام الثلاث الأولى كانت دون

¹ - القديس أوغسطين: الاعترافات، تر: برتي شاكرا، (دار النشر الأسقفية، القاهرة، ط5، 2005)، ص:198.

² - حافظ أشرف، مرجع سابق، ص:52.

³ - زيغور علي: أوغسطينوس، (دار اقرأ، بيروت، ط1، 1983)، ص:162.

⁴ - القديس أوغسطين: مدينة الله، تر: يوحنا الحلو، (دار دمشق، بيروت، ط2، 2007)، مج 2، ص:17.

⁵ - المصدر نفسه، ص: 15.

شمس، وبهذا فهي أيام بخلاف أيامنا العادية التي تبدأ بزوغ الشمس وتنتهي بزوالها، "ولأننا نرى أن أيامنا العادية ليس لها مساء إلا بغياب الشمس وليس لها صباح إلا بطلوعها فإن الأيام الثلاثة الأولى انقضت بدون شمس: الشمس، حسب ما جاء في الكتاب المقدس، خلقت في اليوم الرابع"¹، وبهذا فإن الأيام التي يقصدها الكتاب المقدس ليست هي نفسها الأيام التي نعرفها أو التي نعيشها، "وهذا يعني أن القديس أوغسطين كان يقرر أن الله تعالى قادر على الخلق في لحظة بأن يقول لشيء <كن> فيكون: وإنما أورد لنا قصة هذا الخالق على أنه تم في أيام معينة لأننا عاجزون عن إدراك الخلق على حقيقته فقَرَبَهُ لنا على قدر عقولنا، ومثله لنا بما نشاهده في هذا العالم، لأن فعل الله على حقيقته أعلى من أن تدركه عقولنا الضيقة، فعلينا التسليم بما أتى به النص الديني من غير جدال"².

أما بالنسبة لفكرة استراحة الله في اليوم السابع فإن أوغسطين يرى بأن هذا التعبير عن الاستراحة كأنه تعبير عن تعب الله بعد قيامه بعملية الخلق، لكن هذا يؤدي إلى الانقاص من كمال الله باعتبار أنه قد مسه التعب فالله قادر على الخلق والإبداع متى شاء، لذلك فسر القديس أوغسطين هذه الراحة بقوله "إن استراحة الله هي استراحة من يستريحون فيه"³ إذ يجعل الله نفسه راحة لهم، ويعددهم بالراحة الأبدية التي يعتبرها راحة في الله، وهي راحة تنتظرهم بعد أعمالهم الصالحة التي سيقومون بها، إذ خلق الله الإنسان خيرا بطبيعته لينعم بالأمان والراحة.

وهكذا ندرك بأن فعل الخلق بالنسبة لأوغسطين كان مرة واحدة، رغم أن الأشياء في تطور ونشأة، إلا أنه فسر هذا التطور في ظل عملية الخلق مرة واحدة بالنظرية البذرية، إذ أن "الأشياء كانت في البدء في حالة كمون على شكل بذور، وهذه تنمو من بعد فُتَكُونُ الأشياء"⁴، ففعل الخلق الواحد الذي كان في فكر القديس أوغسطين هو فعل خلق البذور، ومن هذه الأخيرة تنشأ باقي الأشياء وتظهر مختلف المخلوقات فالأشياء تنمو وتتطور من البذرة التي أوجدت مرة واحدة، وهكذا فهناك نوعين من المخلوقات أوجدها الله من خلال عملية الخلق: "مخلوقات خلقها الله بالفعل وهي الدائمة الثابتة على صورتها وتشمل الملائكة والنور والعناصر الأربعة (الهواء والماء والتراب والنار)، والكواكب ونفس الإنسان الأول، والبعض الآخر بالقوة

¹ - القديس أوغسطين: مدينة الله، مج 2، مصدر سابق، ص: 14.

² - محمد ابراهيم تركي : مدخل إلى الفلسفة المسيحية في أوروبا إبان العصر الوسيط، (دار الكتب القانونية، القاهرة، دط، دت)، ص: 191.

³ - المصدر السابق، ص: 15.

⁴ - حافظ أشرف، مرجع سابق، ص: 53.

وتشمل النبات والحيوان خلقها الله في (أصول بذرية) غير محسوسة، أودعها في طين الأرض على أن يتعدها بعنايته ويبلغها إلى النضج والظهور، فتخرج منها الأحياء على مر الزمان، فالعلية والقوة تنمو وتظهر في الظروف الملائمة، وذلك كما نرى في الحياة"¹.

ثالثا: خلق الملائكة (جميعهم على طبيعة خيرة):

بالنسبة لخلق الملائكة فإننا نلاحظ بأن الكتاب المقدس عندما تحدث عن خلق العالم لم يتحدث بوضوح عن خلق الملائكة، وإن القارئ للكتاب المقدس قراءة سطحية سيعتقد ان خلق الملائكة لم يكن ضمن الأيام الستة التي تم فيها عملية الخلق، إذ يبدأ الكتاب كلامه في الآية بخلق السماء والأرض وينتهي باستراحة الله في اليوم السابع وقبل هذا لم يصنع شيئا، يقول أوغسطين: "قبل السماء والأرض لم يصنع شيئا"²، لكن أوغسطين يرى أن الكتاب المقدس ذكر وجود الملائكة، إذ وُجدوا من قبل أن يخلق الله الكواكب، إذ أن الكواكب خلقت في اليوم الرابع، أي أنهم خلقوا قبل هذا اليوم في إحدى الثلاث الأيام الأولى، يقول أوغسطين: "فالكتاب يقدم لنا دحضا له، السلطة ذاتها، سلطة الله القائل: «عندما خلقت الكواكب مجدي ملائكتي بصوت عالٍ»"³.

لقد خلق الله الملائكة خيرة لأنه خير ولا يخلق سوى الخير " فالعالم فيض من خير الله "⁴، ومع خلق الله للملائكة، بدأت مع هذه الأخيرة ولادة مدينة الله، " والآن بما أني اواجه ولادة المدينة المقدسة، بدءا بالملائكة القديسين، النخبة المحيدة للمدينة: التي لم تعرف سعادتها مرارة النفي "⁵، فالملائكة خلقت لتعيش سعيدة بالقرب من الله، خلقت كلها على نفس الطبيعة، خيرة، مطاوعة لخالقها، وظلت كذلك إلى أن تغلغل الحسد والكبرياء إلى قلب إبليس الذي خرج عن طوع ربه بإرتكابه للخطيئة بمحض إرادته، صحيح أنه خُلِقَ ذا إرادة طيبة، لكن في نفس الوقت خلق حرًا، وبحريته مالت إرادته إلى الشر ليسقط في الإثم، "فقد شاء إبليس الذي خرج صالحا من يد الله أن يصير شريرا بارادته الذاتية"⁶، "فالإرادة علة الخطيئة او الخطيئة عدم محبة الله

¹ - حافظ أشرف، مرجع سابق، ص: 53.

² - القديس أوغسطين: مدينة الله، مج2، مصدر سابق، ص: 17.

³ - المصدر نفسه، ص: 18.

⁴ - بدوي عبد الرحمان: فلسفة العصور الوسطى، (وكالة المطبوعات، دار القلم، الكويت، لبنان، ط3، 1979)، ص: 78.

⁵ - المصدر السابق، ص: 16.

⁶ - المصدر نفسه، ص: 29.

في ارادتنا¹ وبهذا فالملائكة قد خلُقوا على نفس الشاكلة الاخلاقية، خيرين بطبيعتهم، لكن إراداتهم اختلفت يقول أوغسطين: " ان يكون ميول الملائكة الصالحين والأشرار المتناقضة وليدة التناقض بين الإرادات والرغبات فيهم وليست وليدة الاختلاف في الطبيعة طالما أنهم جميعا من خلق الله الصانع والخالق لكل جوهر صالح بطبيعته"²، إذن فالله قد خلق الملائكة خيريين على طبيعته الخيرة، ليس فقط الملائكة بل كل الكون، حتى الإنسان المخطئ كان قد خلقه خيرا، وجعله على صورته، فالله قد رفع من شأنه وكرمه على سائري المخلوقات فقد "جاء الإنسان في نهاية الخلق فريدا في كونيته، مركبا في طبيعته، عاقلا بفكره، حرّا بإرادته، بشريّا في ولادته، فأصبح مركز الكون، وتاج الخليقة، عريس الوجود، بل أجمل ما في الوجود هو الذي أعطى الخليقة معنى وهدفا فكل شيء كان لأجله ولخدمته"³.

وهكذا وفي نهاية هذا المبحث، يمكن أن نتصور عملية الخلق وبذلك المدينة السماوية بوجود الملائكة وخلق الله للإنسان الأول (آدم) الذي خلق من عدم على صورة الرب، ليحي في الجنة، هذا المكان المقدس فيأكل من ثماره، وينعم بكل خيراته، ويعيش سعيدا مكرما، فالله هو خالق الإنسان وخالق كل العالم بقدرته العظيمة، وحكمته التي نظمته وجعلته متوازنا بدقة بعد أن كان في أصله عدم.

¹ - محمد عويضة كامل محمد: أوغسطين فيلسوف العصور الوسطى، (دار كتب العلمية، بيروت، ط1993،1)، ص: 78.

² - القديس أوغسطين: مدينة الله، مج2، مصدر سابق، ص: 59.

³ - كراس المحرقى: إلهي لماذا خلقتني، (شركة الطباعة المصرية، مصر، دط، دت)، ص: 09.

المبحث الثاني: مفهوم الخطيئة:

لقد كرم الله الإنسان الأول إذ خلقه على صورته، لذلك كان لا بد له من أن يحافظ على هذه الصورة التي خلق عليها، وأن يعيش في جنته محافظا على الأنعام التي رزقه الله بها، وهذا لم يكن ليتحقق دون طاعة آدم لربه، لكن الإنسان الأول عصى ربه وتعدى أوامر الله، فوقع عليه الإثم وأصبح ملعونا وذريته بسبب الخطيئة، وبما أن هذه الأخيرة كانت سبب سقوط الإنسان، وسبب شقائه وألمه في هذه الحياة، فإن موضوع الخطيئة كان من بين أهم المواضيع التي شغلت فكر الباحثين المسيحيين، وكان من بينهم القديس أوغسطين الذي ربط تقريبا حل فلسفته باللاهوت وفكرة الخطيئة.

- فما هو تفسير القديس أوغسطين للخطيئة؟ وكيف وقع آدم في الإثم؟

لقد كرم الله آدم وأعطاه من النعم ما يضمن له السعادة، إذ عاش آدم في الجنة متمتعا بخيراتها " وجبل الرب الإله آدم ترابا من الأرض ونفخ في أنفه نسمة حياة، فصار آدم نفسا حية، وغرس الرب الإله جنة في عدن شرقا ووضع فيها آدم، الذي جبله"¹، إذن فالجنة التي خلقها الله ووضع فيها آدم، كان فيها كل ما تشتهيبه الأنفس و تروق له، وكل ما يمكن أن يتنعم به الإنسان ويتلذذ به، لكن منع الله على آدم أمرا واحدا وهو شجرة وسط الجنة و " أوصى الرب الإله آدم قائلا من جميع شجر الجنة تأكل أكلا، وأما شجرة معرفة الخير والشر فلا تأكل منها"²، فقد كان من بين كل أشجار الجنة التي خلقها الله شجرتان مميزتان في وسطهما، شجرة الحياة، وشجرة معرفة الخير والشر، " وشجرة الحياة في وسط الجنة وشجرة معرفة الخير والشر"³ "شجرة الحياة التي جعلها لخلاص الإنسان من الموت لو لم يخطئ، وشجرة معرفة الخير والشر التي جعلت لامتحان مقدار ولاء الإنسان لله"⁴، إذن شجرة معرفة الخير والشر كانت لاختبار الإنسان الأول، إذا ما كان قادرا على الحفاظ على ولائه لله أم لا، وبهذا فإن الله قد أوجد هذه الشجرة وعزز على آدم أن لا

¹ - الكتاب المقدس: سفر التكوين، الإصحاح: 2/7-8.

² - الكتاب المقدس: سفر التكوين، الإصحاح: 2/16-17.

³ - الكتب المقدس: سفر التكوين، الإصحاح: 2/9.

⁴ - كلايد تارنر: هذه عقائدنا، (المنشورات المعمدانية، بيروت، دط، 1972)، ص: 46.

يقترّب منها وأن لا يأكلا من ثمارها " وأما ثمر الشجرة التي في وسط الجنة فقال الله لا تأكلا منها"¹، أوصى الله آدم أن لا يأكل منها حتى لا يقع في المخالفة وتكون عقوبته الموت "يوم تأكل منها موتا تموت"².

كانت وصية الله لآدم واضحة لكن آدم لم يحفظ هذه الوصية وتعداها وأكل من الشجرة التي منعها وحرّمها الله عليه وبهذا سقط الإنسان الأول في الخطأ وتغير حاله من حال السعادة إلى حال الشقاء والتعب وسقط من عليائه إلى سافله، فمن بعد أن كان متنعما في الجنة، هبط به الله إلى الأرض وهكذا كان سقوط الإنسان، وبما أن مفهومي السقوط والخطيئة متلازمان كان لا بد لنا من ضبط مفاهيمي للسقوط أولا.

أولا: معنى السقوط

جاء في لسان العرب لابن منظور: "سقط: السقطة: الوقعة الشديدة، سَقَطَ، يَسْقُطُ، سُقُوطًا، فهو سَاقِطٌ وَسُقُوطٌ: وَقَعَ"³.

والسقوط هو اللفظ الشائع في الفكر المسيحي للتعبير عن خطيئة آدم عند أكله من ثمار الشجرة التي منعها الله عليه، إذ نلاحظ أن أوغسطين يعبر عن ارتكاب الخطيئة في كتابه "مدينة الله" بالسقوط مرات عديدة، وإذا فالسقوط تعبير عن الخطيئة والخطيئة إنما هي الأخرى تعبير عن السقوط، إذ لدينا هنا سقوطين سقوط في الخطيئة أي الوقوع في الخطيئة، وسقوط آخر هو سقوط نتج عن الخطيئة نفسها، فبعد سقوط الإنسان في الخطيئة سقط وجوده كعقاب عن السقوط في الخطيئة فمن بعد أن كان في الجنة سَيُهْبَطُ به إلى الأرض.

لقد " استعملت عدة كلمات في الكتاب المقدس للدلالة على الانفصال الذي حدث بين الله والإنسان فقد قيل فيه أنه: تعدّ، إثم، شر، إهانة، معصية، تمرد، لكن الكلمة المستعملة عادة لوصف سقوط الإنسان هي الخطيئة هذه هي الكلمة التي استعملها الله ذاته"⁴.

- ومن هذا كان لا بد من الضبط المفاهيمي لمفهوم الخطيئة.

¹ - الكتاب المقدس: سفر التكوين، الإصحاح: 3/3.

² - الكتاب المقدس: سفر التكوين، الإصحاح: 17/2.

³ - ابن منظور: لسان العرب، (دار المعارف، القاهرة، دط، 1119هـ، ج24)، مج3، ص: 2037.

⁴ - كلايد تارنر: مرجع سابق، ص: 56.

ثانيا: تعريف الخطيئة

- جاءت الخطيئة في "لسان العرب" لابن منظور في كلمة "خطأ"، "الخطأ والخطاء: ضد الصواب، وهو خطأ، وأخطأ الطريق: أي عدل عنه، وأخطأ الرامي الغرض: لم يصبه وخطئ الرجل يخطأ خطأ وخطأة على فعله: أذنب"¹.

- أما في ما جاء في "القاموس المحيط" لي لفيروز آبادي " الخطءُ والخطأُ و الخطّاءُ: ضد الصواب، وقد أخطأ إخطاءً و خاطئةً و تخطأ و خطئ، وأخطئْتُ: (...). رذيلةً (...). والخطيئةُ: الذنب"².

- أما ما جاء في "مختار الصحاح" (الخاطئ) من تعمد ما لا ينبغي"³، وبالتالي فالخطيئة على العموم إنما تعني الذنب، وقد جاء في "المعجم الفلسفي" لجميل صليبا تعريف للخطيئة على أن "الخطيئة هي التقصير في اتباع القواعد الواجبة خلقيا أو فنيا أو علميا أو منطقيا"⁴

- أما "مراد وهبة" فيعرف الخطيئة بأنها "معصية: خطأ أخلاقي صادر عن إرادة شريرة وينطوي على عصيان لوصايا الله"⁵.

- ويعرفها "أندري لالاند" بقوله " خطأ أخلاقي باعتباره فعلا واعيا صادرا عن إرادة سيئة، وبنحو خاص باعتباره خروجاً إرادياً على وصايا الله، (يكمن الشر أخلاقي في الخطيئة)"⁶.

وخلافا لهذه التعريفات للخطيئة هناك العديد من المعاجم والموسوعات التي إحتوت على مفهوم الخطيئة، لكن إذا ما رأينا بصفة عامة لكل هذه التعريفات سنجد أن للخطيئة تقريبا تعريف شامل احتوته جميع هذه الموسوعات والمعاجم تمثلت في أنها الذنب، الخطيئة تعني عموما الذنب.

¹ - ابن منظور، مرجع سابق، ص: 1192-1193.

² - الفيروز آبادي: القاموس المحيط، (مؤسسة الرسالة، لبنان، ط8، 2005)، ص: 39.

³ - محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي: مختار الصحاح، (مكتبة لبنان، بيروت، د ط، 1919)، ص: 157-158.

⁴ - صليبا جميل: المعجم الفلسفي، (دار الكتاب اللبناني، بيروت، د ط، 1982، ج1)، ص: 530.

⁵ - مراد وهبة: المعجم الفلسفي، (دار قباء الحديثة، القاهرة، د ط، 2007)، ص: 297-298.

⁶ - لالاند أندريه: موسوعة لالاند الفلسفية، (منشورات عويدات، بيروت- باريس، ط2، 2001)، مج1، ص: 951.

وإذا ما نظرنا إلى الخطيئة في الفكر المسيحي فإننا نجدتها متعلقة بالديانة المسيحية وعلاقة الرب بالإنسان الأول وكيف أن هذا الأخير قد عصى ربه وإرتكب الخطأ "الخطيئة بوجه عام تعني لدى المسيحيين: التعدي على شريعة الله وأحكامه أو عدم الامتثال لشريعة الله (...). الخطيئة هي التعدي على قانون الله (...). هي اهمال ناحية الخير في الحياة (...). هي كل ما ليس من الإيمان (...). هي كل إثم نرتكبه (...). هي فكر الحماقة (...). هي نور الأشرار (...)"¹.

وللخطيئة اقسام في المعتقد المسيحي فهي إثتان "أصلية وهي التي يولد الإنسان بها وفعلية وهي التي يرتكبها الفرد (...). أي ما لنا بالوراثة وما لنا بأعمالنا الاختيارية (...). فالأصلية لا تعني (في نظرهم) ان الإنسان الأول خلق بها فقد خلق الإنسان الأول بريئاً، ثم دخلت الخطيئة إلى حياته وفكره عن طريق خطيئة آدم وحواء ومن ثم سيطرت على الجنس البشري كله"²، بهذا فإن خطيئة الإنسان الأول لم تكن مورثة فيه لكنها تَوَرَّثَتْ في من جاء بعده وهكذا يمكن أن نميز بين مرحلتين وهما مرحلة ما قبل السقوط حينما كان الإنسان بدون خطيئة، ومرحلة بعد السقوط حين سقط الإنسان في الخطيئة، فدخلت الخطيئة بهذا إلى العالم وأصبح البشر يولدون بالخطيئة الأولى التي توارثوها عن آدم وحواء، وبهذا أصبحت أصلية فيهم، فلا بد من أن يولد أي شخص حاملاً للخطيئة في هذا العالم وتوارثه للخطيئة فقد توارث الشقاء والتعب والألم وغيره كثير من صور العقاب والجزاء، "إن كل من يرجع إلى التاريخ، يعرف أن الخطيئة هي التي كانت السبب في كل المصائب التي حلت على العالم منذ أن وجد إلى وقتنا هذا، فما الذي طرح المحبة من قلب آدم وملاؤه بالخوف وطرده من جنة عدن وجعله يشعر برغبته (...). بل ما الذي جعل الله يغضب على خليقته (...). وما الذي جلب الشقاء على العالم أجمع (...). إنها الخطيئة"³.

¹ - عجيبة أحمد علي: الخلاص المسيحي ونظرة الاسلام إليه، (دار الآفاق العربية، القاهرة، دط، دت)، ص: 175-176.

² - المرجع نفسه، ص: 174.

³ - كراس المحرقى: شوكة الخطيئة، (شركة الطباعة المصرية، مصر، ط5، دت)، ص: 8.

ثالثا: الخطيئة عند أوغسطين

" أكد أوغسطين (...) أن الخطيئة الأولى هي التي حرمت آدم من نعمة الخلود، تلك النعمة التي كان الله قد منَّ بها عليه عند خلقه"¹، إذ كان آدم وحواء يعيشان في الجنة، ولولا خطيئتهما لبقيا فيها أبداً لكن حدثت الخطيئة وحرمت آدم من البقاء فيها، وهذا ما يذكره الكتاب المقدس بالتفصيل في واقعة الخطيئة، "وكانت الحيّة أحيل جميع حيوانات البرية التي عملها الرب الإله، فقالت للمرأة أحقا قال الله لا تأكلا من كل شجر الجنة فقالت المرأة للحيّة من ثمر شجر الجنة نأكل، وأما ثمر الشجرة التي في وسط الجنة فقال الله لا تأكلا منه ولا تمساه لئلا تموتا فقالت الحيّة للمرأة لن تموتا، بل الله عالم أنه يوم تأكلان منه تنفتح أعينكما وتكونان كالله عارفين الخير والشر، فرأت المرأة أن الشجرة جيدة للأكل وأنها بهجة للعيون وأن الشجرة شهية للنظر، فأخذت من ثمرها وأكلت وأعطت رجلها أيضا معها فأكل، فانفتحت أعينهما وعلما أنهما عريانان فخاطا أوراق تين وصنعا لأنفسهما مآزر، وسمعا صوت الرب الإله ماشيا في الجنة عند هبوب ريح النهار فإختبأ آدم وإمرأته من وجه الرب الإله في وسط شجر الجنة، فنادى الرب الإله آدم وقال له أين أنت، فقال سمعت صوتك في الجنة فخشيت لأني عريان فإختبأت، فقال من أعلمك أنك عريان هل أكلت من الشجرة التي أوصيتك أن لا تأكل منها، فقال آدم: المرأة التي جعلتها معي هي أعطتني من الشجرة فأكلت، فقال الرب الإله للمرأة ما هذا الذي فعلت، فقالت المرأة: الحيّة غرتني فأكلت، فقال الرب للحيّة، لأنك فعلت هذا ملعونة أنت من جميع البهائم ومن جميع وحوش البرية على بطنك تسعين وترابا تأكلين كل أيام حياتك وأضع عداوة بينك وبين المرأة وبين نسلك ونسلها هو يسحق رأسك وأنت تسحقين عقبه وقال للمرأة تَكْثِيرًا أَكْثُرُ إِثْعَابٍ حَبْلِكَ بِالْوَجْعِ تَلْدِينَ أَوْلَادًا وَإِلَى رِجْلِكَ يَكُونُ اشْتِيَاقُكَ وَهُوَ يَسُودُ عَلَيْكَ، وقال لآدم لأنك سمعت لقول امرأتك وأكلت من الشجرة التي أوصيتك قائلاً لا تأكل منها ملعونة الأرض بسببك، بالتعب تأكل منها كل أيام حياتك، وشوكا وحسكا تنبت لك، وتأكل عشب الحقل (...)، فأخرجه الرب الإله من جنة عدن ليعمل الأرض التي أخذ منها فطرده الإنسان وأقام شرقي جنة عدن الكروبيم وهيب سيف متقلب لحراسة طريق شجرة الحياة"².

إذًا حادثة الخطيئة قد ذكرت بالتفصيل في الكتاب المقدس، وباعتبار القديس أوغسطين لاهوتيا فقد عالج موضوع الخطيئة، ويمكن أن نقول عن فكر أوغسطين حول الخطيئة أنه قد ارتبط ارتباطا وثيقا بفكر

¹ - الحظيري زينب محمود: لاهوت التاريخ عند القديس أوغسطين، (دار الثقافة، القاهرة، ط1، 1996)، ص:90.

² - الكتاب المقدس: سفر التكوين، الإصحاح ، 3/1-18.

البلاجيين*، ذلك أن فكر الخطيئة عنده إنما هو نتاج تصدي أوغسطين للفكر البيلاجي حول الخطيئة ورفضه لهرطقاتهم حولها فقد "قاوم أوغسطين بقوة وحماس كبير الزنادقة والبدع والهرطقات العديدة والمذاهب الفلسفية والدينية كالأكاديمية* والمانوية*، التي سبق أن انبهر ببريقها طويلا (...). كما أنه قام بهدم تعاليم البيلاجية"¹ التي جاء بها بيلاجيوس إذ يقول: "« إن دخول الجنة عمل يتوقف على الإرادة الفردية وسلوك الفرد بجهد الخاص وليس هناك إنسان محكوم عليه منذ الأزل بدخول الجنة وآخر بدخول النار (...).»"، هذه الآراء قد تروق للكثيرين منا، لكن أوغسطين وتابعيه لم يرضوا عنها وأخذوا يهاجمونها ويهاجمون بيلاجيوس، هذا الزنديق على حد تعبيره"²، ويمكن ايجاز هرطقات بيلاجيوس في:

"- ان خطيئة آدم كانت قاصرة على نفسه ولم تتعداها إلى أحد من نسله.....

- ان كل إنسان حين يولد يكون بمثابة آدم حين خلق وقبل أن يخطئ.....

- ان كل إنسان يمكن وبمجرد قوته الطبيعية وحرته المطلقة أن يبلغ اسمى درجة من القداسة من غير افتقار إلى مساعدة النعمة الإلهية"³.

لكن أوغسطين ناهض هذا الفكر وحاول ابطال كل هذه الأفكار البيلاجية حول الخطيئة، فقد رأى أن الخطيئة تسبب فيها آدم وتوارثت إلى الأجناس البشرية من بعده "فالبشر قبل ولادتهم، لم تكن لهم حياة ولم يفعلوا خيرا أو شرا، ولم يلجوا خضّم مآسي هذه الحياة الحاضرة، لأنهم استحقوا ذلك في حياة سابقة، ما داموا لم يلجوا تلك الحياة، ولكن لأنهم أبناء آدم بالجسد فقد وسموا بدنس الخطيئة التي تؤدي إلى الموت"⁴.

* - البلاجيين: هم أتباع بيلاجيوس: (Pelagius)، الراهب الإنجليزي الذي كان متأثرا بأراء القديس أوريجين السكندري، الذي بالغ في اظهار الدور الذي يقوم به الإنسان في أمر خلاصه، وقد قلل من شأن النعمة، وأنكر الخطيئة الأصلية، انظر: محمد ابراهيم تركي، مرجع سابق، ص: 158.

* - الأكاديمية: مذهب افلاطوني، نسبة للمدرسة التي اسسها افلاطون عام 387 ق م في بستان على ابواب أثينا يسمى (أكاديموس)، ودرس فيها الرياضيات والفلسفة. انظر: صليبا جميل، مرجع سابق، ص: 113.

* - المانوية: تعتبر من المذاهب الذائعة الصيت ذات شعبية واسعة يترأسها ماني الذي ادعى نزول الوحي عليه متأثر بالمذهب الذي ينتمي له والده. انظر: محمد بن اسحاق النديم: الفهرست، تحقيق: رضا تجدد، (دار المعرفة، بيروت، دط، 1978)، ص: 131.

¹ - لودي عبد السلام: صراع أوغسطين، (دن، دب، ط 1، 1990)، ص: 09.

² - محمد عويضة كامل محمد، مرجع سابق، ص: 81.

³ - محمد ابراهيم تركي، مرجع سابق، ص: 159.

⁴ - هنري إيرينييه ماژو: القديس أوغسطينس والأوغيسطينية، تع: سعد الله سميج حجا، (دار دمشق، بيروت، ط 1، 2007)، ص: 77.

يقول أوغسطين في كتابه "الموجز": "بعد أن نفى آدم من هذا المكان (الجنة) وبعد الخطيئة، فرض الله عليه، وعلى ذريته التي لوث بذورها بالرزيلة، عقوبة الموت (...). وهكذا فإن كل إنسان ينحدر منه ومن زوجته الملعونة بذورها، لأنها كانت أداة خطيئته (...). ستلحق به الخطيئة الأصلية"¹.

وبهذا يرى أوغسطين إذن إن الإنسان الأول بعد الخطيئة حكم عليه بالموت، يقول أوغسطين: "كما يموت الجسد عندما تفارقه النفس، كذلك تموت النفس عندما تنفصل عن الله، ولكن هناك فرقا بين موت الجسد وموت النفس، فموت الجسد محتوم أما موت النفس اختياري، إذا ميت مهما ظن أنه حي وأنه يتمتع بالحياة"².

ويوضح أوغسطين فكره عن الخطيئة أكثر فيقول: "ما كان الله ليجهل أن الإنسان سوف يخطأ، وتحت نير الخطيئة يلد بشر للموت، يحملون للأبد هول الإثم (...). لكن الله قد سبق وعلم أيضا أن الإنسان سوف يدعى إلى التبنى بنعمة منه فيحرره من رباط الخطيئة (...). سوف يتمتع مع الملائكة بالسلام إلى الأبد"³.

وهكذا إذن كان مفهوم الخطيئة في فكر القديس أوغسطين على العموم، إذ وقعت الخطيئة بسبب تمرد الإنسان الأول على الله وعصيانه لأوامره، ليقع في الإثم والمعصية بمحض إرادته الحرة، فكان بذلك أن عوقب الإنسان وأسقطه الله إلى الأرض ملعونا، بعد أن كان في الجنة يتنعم بالخيرات التي رزقه الله، فتحول الإنسان مما كان عليه في المدينة السماوية إلى مدينة الشر والألم والمتاعب، (مدينة الأرض).

¹ - نقلا عن: الخضيرى زينب محمود، مرجع سابق، ص: 90.

² - نقلا عن: كراس المحرقى: شوكة الخطيئة، مرجع سابق، ص: 17.

³ - القديس أوغسطين: مدينة الله، مج2، مصدر سابق، ص: 99.

المبحث الثالث : الحرية والإرادة

ارتبطت الحرية بالإرادة في فكر القديس أوغسطين إرتباطاً وثيقاً إذ لا يمكن أن نتحدث عن الحرية بعيداً عن الإرادة ولا عن هذه الأخيرة بعيداً عن الأولى، خصوصاً عند ارتباطهما بالجانب الديني فيما تعلق منه بالخطيئة ومعصية الإنسان الأول لله وطاعة أهواءه وأوامر نفسه أو بالأحرى إرادته الشريرة التي ابتعدت عن الصواب لتختار الرذيلة، فكيف يمكن تفسير الخطيئة انطلاقاً من فكرتي الحرية والإرادة؟.

يقول القديس أوغسطين: " إن آباءنا الأولين بدأوا يكونون على فساد باطني قبل أن يقعوا في ذلك العصيان الواضح إذ لا يمكن للإنسان أن يأتي عملاً عاطلاً إن لم تسبق إليه الإرادة الشريرة"¹.

أولاً: من إرادة خيرة إلى إرادة شريرة

الإرادة هي مصدر فعل الصواب أو فعل الخطأ وذلك حسب استعمالها، فالإرادة من خلق الله فينا لذلك لا بد من أن تكون ذات طبيعة خيرة لكن رغم ذلك قد تؤدي بنا إلى ارتكاب الخطيئة والمعصية عندما نسيء استعمالها فخيرية الإرادة وشرها يكمنان في حرية الاختيار بين الصواب والخطأ "الإرادة تأتينا من الله وهي بحد ذاتها ليست خيراً مطلقاً تماماً (...). الإرادة أداة ذات طبيعة خيرة إلا أن مفعولها يمكن أن يكون سيئاً حسب طريقة الإنسان في استعمالها، وكما أن العقل مصدر العلم يعلم ذاته، والذاكرة مخزن الذكريات تتذكر ذاتها، فكذلك هي الإرادة: أنها سيدة نفسها، حرة، هي التي تسيء استعمال الخير أي استعمال نفسها (لأنها بحد ذاتها خير)"².

أوجد الإنسان في هذا الكون من فيض الخالق، وبما أن الله خير فإن ما يفيض عنه خير هو الآخر لذلك خلق الله الإنسان على صورته خيراً وهذا من نعمه عليه، وبالتالي أنعمه بإستقامة إرادته في بادئ الأمر لكن الإنسان فقد هذه الإرادة الخيرة حين عصى ربه بسقوطه في الخطأ" ان التمرد على الإرادة بفعل الخطأ ليس سوى هدم وتحطيم للنظام الإلهي"³.

¹ - القديس أوغسطين: مدينة الله، مج 2، مصدر سابق، ص:185.

² - زيغور علي: الفلسفة في أوروبا الوسيطية وعصري النهضة و الإصلاح، (دار الحياة، بيروت، د ط، 1998)، ص:134.

³ - جلسون اتين: روح الفلسفة المسيحية في العصر الوسيط، تر وتع: إمام عبد الفتاح إمام، (مكتبة مدبولي، الإسكندرية، ط3، 1996)، ص:436.

فالخطيئة تُسبب في شرور الإرادة الإنسانية التي كانت في الأصل ذات طبيعة خيرة، ولا يمكن الاعتناق من هذا إلا بالعودة إلى الله والارتباط به لتعم نعمته علينا من جديد " إن الخطيئة الأصلية هي التي وصمت الجنس البشري بوصمة الميل إلى الشر (...). والشيء الوحيد الذي يمكننا من التغلب على هذا هي النعمة الإلهية التي يهبها الله لكل من أراد"¹.

يقول أوغسطين: "خلق الإنسان مستقيماً، ذا إرادة صالحة، ولما كانت له الاستقامة لولا الإرادة الصالحة التي صنعها الله وقبلها الإنسان منه تعالى مع الحياة، أما الإرادة الأولى الشريرة التي سبقت في الإنسان كل الأعمال العاطلة فليست عملاً بل هي انكفاء عن أعمال الله إلى أعمال الإنسان، والأعمال تكون عاطلة لكونها لا تتخذ الله غاية لها بل إرادتها الشخصية"².

فالإنسان حين يتخذ إرادته الشخصية غاية لعمله يتعد عن الصواب وعن الله ويقع في المحرمات، يقول أوغسطين: "إنزلت عنك بعيداً يا إلهي، وتهمت"³.

ثانياً: الكبرياء والغرور أساس السقوط

كان لابد للإنسان أن لا ينصت لإرادته الشريرة وهذا لن يتحقق إلا انطلاقاً من التعلق بالله ومحبته فخطيئة الإنسان الأول كان من بين أهم أسبابها هو تبدد حبه لله بعد أن وسوس الشيطان له وأغواه بأنه يمكن أن يصبح "إله"، وبهذا إتبع أهواءه وتملكه الغرور والكبرياء، فالكبرياء هو عدو الإنسان وهو مُسْقِطُهُ مثل ما كان سبب سقوط الشيطان من قبل " فمنذ أن انكفأ عن الله، إلى ذاته، متحمساً لأن يكون ظالماً مستبداً بدلاً من أن يكون خادماً أميناً مطيعاً، رأينا كيف أن ملاك الكبرياء الحسود، طرده من الفردوس الروحي ومنذئذ راح يندفع وراء عبقرية له شريرة إلى التغلغل في حواس الإنسان، غيورا من استقامة في قامته بعد أن سقط مما كان فيه"⁴.

¹ - ديورانت ويل: قصة الحضارة، قيصر والمسيح أو الحضارة الرومانية، (دار الكتاب العربي، لبنان، د ط، 1998، ج3)، ص: 140.

² - القديس أوغسطين: مدينة الله، مج2، مصدر سابق، ص: 181.

³ - القديس أوغسطين: الاعترافات، مصدر سابق، ص: 36.

⁴ - المصدر السابق، ص: 183.

"خطيئة العصيان تلك الصريحة ضد الشريعة الإلهية، الفخ الذي نصبه الشيطان، ما كان ليقع فيه الإنسان لو لم يبدأ يرتضي ذاته، وفي الواقع لقد أعطى أذنا صاغية للكلمة التالية: (سوف تصيران كالألهة)"¹.

و من واقعة اغواء الحية لحواء، يمكن أن ندرك موقف أوغسطين حول إرادة الإنسان وحرته بوضوح إذ يرى أوغسطين الإنسان الأول قد اختار الأكل من ثمار شجرة معرفة الخير والشر بمحض إرادته فهو حرٌّ، لكنه -أي أوغسطين - تعرض لتناقض، كيف يكون الإنسان حرًّا في ظل علم الله بكل ما كان سيفعله الإنسان في مستقبله، " من المسائل التي حيرت القديس أوغسطين مشكلة التوفيق بين حرية الإرادة وعلم الله الأزلي السابق لأعمال الإنسان، فإذا كان علم الله يشمل كل شيء فهو يرى المستقبل بكل ما فيه، ولما كانت إرادة الله ثابتة لا تتغير، فإن ما لديه من صورة للحوادث التي سوف تقع وفقا لهذه الصور، فهي إذن مقررة من قبل لا تبيد فيها ولا تتغير، فكيف والحالة هذه يكون الإنسان حرا في أعماله"².

" أوغسطين لا يرى ان سبق العلم الإلهي للعمل الإنساني يعد نوعا من القسر والجبر، فالله هو الخير بالذات ولا يوجه المخلوق إلا للخير والخير هو المطلوب ولأجل هذا أعطانا الله العقل نعلم به الخير وأعطانا المحبة نميل بها إلى الخير المعلوم"³، وبهذا فإن الله خلق الإنسان عاقلا وكرمه بجوهر العقل ليميز به بين الصواب والخطأ ويتبع نير عقله ليسلك الطريق الصحيح ولا يقع فيما تملبه الإرادة الشريرة وبخلاف هذا فقد أنعم الله كذلك على عباده بنعمة المحبة، فهذه الأخيرة هي أساس الثبات على الفعل الصواب وعدم ارتكاب الرذائل فحب الله يقتل الإرادة الشريرة التي تتحكم فيها ميولات الإنسان وأهواءه وحبه لنفسه ومصالحه، لذلك لا بد من تقوية صلة الإنسان بربه وذلك لن يكون إلا بالمحبة، إذ أن "الفضائل في نظر أوغسطين ترجع كلها إلى فضيلة عليا واحدة وهي فضيلة الحب، أي حب الله"⁴.

¹ - القديس أوغسطين: مدينة الله، مج2، مصدر سابق، ص: 187.

² - محمد ابراهيم تركي، مرجع سابق، ص: 200.

³ - محمد عويضة كامل محمد، مرجع سابق، ص: 68.

⁴ - بدوي عبد الرحمان، مرجع سابق، ص: 37.

يقول أغوسطين: "إن الذي يعزم في نفسه على أن يحب الله ويجب قربه كنفسه، لا يحب الإنسان بل يحب الله، يسمى بحق ذا إرادة صالحة، والكتاب المقدس اعتاد أن يسمى تلك الإرادة الصالحة محبة"¹، ويقول أيضا: "الإرادة المستقيمة هي المحبة الحق والإرادة الفاسدة هي الحب الشرير"².

وفي الأخير فإن أوغسطين قد ربط بين إرادة الإنسان وحرته فيما أن الإنسان يمتلك إرادة فهو يمتلك حكم الاختيار بين هذا وذاك من الأمور الصالحة أو الطالحة، وبكل حرية، "فالحرية لا تنفصل عن الإرادة ولا تفهم بدونها، الإنسان حر يؤكد ذلك الكتب المقدسة، ووجود الثواب والعقاب في الحياة الآخرة، ومسؤولية الإنسان عن طاعته أو عصيانه للتعاليم المقدسة"³.

وبما أنه حر فهو مسؤول عن أفعاله إذ له القدرة على اختيار ما يشاء حسب ما يرغب به هو وحسب ما يرفضه، فالرفض أو القبول نابع من إرادته الحرة "لذا يرى أوغسطين أن الحرية هي القدرة على قول "لا" (...). فالحرية بالنسبة للإنسان ليست إلا القدرة على اختيار هذا أو ذلك من دون قسر أو جبر"⁴.

وبهذا إذا فإن "أوغسطين يؤكد حرية الإرادة الإنسانية (...). إذ يعرفها بأنها "القدرة على قبول تصور ما أو رفضه"⁵.

وفي الأخير فإن الإنسان ذو إرادة خيرة بالطبيعة، لأن الإنسان خير، فهو خلق الله الذي لا يخلق إلا كل ما هو خير، لكن الحرية حولت هذه الإرادة الخيرة إلى إرادة شريرة، فالإنسان حر في الاختيار، أن يختار صواب الأفعال أو ان يقول "لا"، فالحرية هي القدرة على قول "لا" لكن الإنسان الأول قد تبددت إرادته الخيرة إلى إرادة شريرة بحريته، فارتكب الإثم ووقع في الخطيئة.

¹ - القديس أوغسطين: مدينة الله، مج2، مصدر سابق، ص: 167.

² - المصدر نفسه، ص: 167.

³ - زيغور علي: الفلسفة في أوروبا الوسيطة وعصري النهضة و الإصلاح، مرجع سابق، ص: 156.

⁴ - محمد عويضة كامل محمد، مرجع سابق، ص: 65.

⁵ - كرم يوسف: تاريخ الفلسفة الأوروبية في العصر الوسيط، (دار القلم، لبنان، د ط، 2003)، ص: 37.

المبحث الرابع : الخير والشر

يربط القديس أوغسطين فكرة الخير والشر بالأخلاق، فالخير هو أساس الأخلاق الجيدة والشر هو عكس ذلك، وبما أن فكر أوغسطين مرتبط بنظريته حول المدينتين، فإن صدور الشر والخير كان من هذا المنطق، فمدينة الله هي أساس الخير وبسقوط الإنسان في الخطأ، ظهر عالم الشر وهو العالم الأرضي، لكن بما أن العالم كله من صنيع الله الخيّر، فكيف يمكن الاقرار بوجود الشر؟

أولاً: الخير

"الخير عند أوغسطين هو صلاح الله، وأصل كل خير، فالأشياء من حيث هي موجودة خيرة وغير سيئة، فالله مصدر كل شيء، ومصدر كل خير، فقد خلق الإرادة التي هي قادرة على أن ترتبط بالخير، أو أن تحيد عنه، فإذا فعلنا الخير فإنما نفعله مشتركين مع الله الذي يخلق كل فعل"¹.

لقد خلق الله الإنسان بطبيعته خيرة، فقد خلق الخير لأن الله خيّر في ذاته، فلا يمكن أن يخلق سوى الخير ولا وجود لشرٍ من خلف الله "ففي مدينة الله رؤية للنعيم الأبدي"².

"الطبيعة الإنسانية إذن خيرة بطبيعتها، وقوة الإرادة التي خلقها فيها الله خيرة أيضاً بطبيعتها لأن الله لا يخلق إلا الخير، إلا أن فعل الإرادة قد يكون شريراً فكيف يمكن للخير والشر أن يتعايشا وأن يوجد سويًا في الإنسان؟، يفسر أوغسطين ذلك بأن الشر ما كان ليوجد لو لا وجود الخير والاثان بينهما علاقة جدلية وإن كان الخير أقوى قطبيها لأنه لا يمكن أن يوجد من غير الشر بينما الشر لا يمكنه أن يوجد من غير الخير"³.

إذ أن الشر لا بد من أن يوجد بما أن الخير موجود في هذا العالم، فالإنسان يمتلك إرادة وفي الوقت نفسه قد منحه الله الحرية، إذ لو لم يكن حرًا لما كان هناك عقاب وثواب على أفعاله وبالتالي فالإنسان الخير تحكمه إرادته بميلها إلى الخير، وان لم يكن كذلك فإنها ستميل إلى الشر لا محالة، وبهذا يتحقق الشر في هذا الوجود، فالشر ليس من خلق الله بل هو نتاج انحراف إرادة الإنسان عن الخير، يقول أوغسطين: "في الحقيقة

¹ - بدوي عبد الرحمان: موسوعة الفلسفة، (المؤسسة العربية، بيروت، ط1، 1984، ج1)، ص:250.

² - برتراند راسل: تاريخ الفلسفة الغربية، تر: زكي نجيب محمود، (لجنة التأليف والترجمة، مصر، ط2، 1968)، ص:98.

³ - الخضير زينب محمود، مرجع سابق، ص:106.

لا يمكن للشر أن يكون جوهرًا، بل هو فقدان الخير¹، لا وجود إذن للشر بالطبيعة، فالإنسان لا يمكن له أن يكون شريرًا بالطبيعة لأن الله خلقه على صورته خيرا مثله وكذلك كل المخلوقات الأخرى لأنها كلها فيض من الله، لكن في وجود الشيطان عدو الله كان لابد للشر من أن يكون إذ يسعى إلى افساد الإرادة الإنسانية الخيرة وهذا ما حدث مع سيدنا آدم وزوجه حواء إذ أغواهما الشيطان الذي تجسد في صورة أفعى ليوسوس لهما فيسقطا في المعصية، فيتبدد هكذا الإنسان الخير بطبيعته إلى شرير قد مالت إرادته إلى الإثم.

ثانيا: الشر

ظهر الشر بسبب الخطيئة، إذ "تحدث أوغسطين عن مفهوم الشر قائلا: ليس الشر مبدأ مفصلا قائما بذاته في وجه الله منذ الأزل، انه غياب وضياع وافتقاد للخير الذي سمح به الله، وهو نتيجة استخدام خاطئ للإرادة الحرة كما يتضح ذلك في تمرد الملائكة وعصيان آدم وقد كان الله على علم بإمكانية سوء استخدام حرية الإرادة وما تجرّه من ويلات، ولكن سمح بذلك لأن كل شيء تحت سلطانه"²، بالنسبة لمشكلة الشر فإن أوغسطين "في البدء، تبنى (...) الحل المانوي للشر، ثم تخلى عنه واعتنق الحل الأفلاطوني ومن بعد فقد تخلى عن هذا الأخير أيضا مقدا نظريته الخاصة حيث ليس الشر جوهر أبديا أزليا كما يزعم المانويون، فالله لا يخلقه بل يقف ضده (...) ورغم بشاعته وما يحدثه من آلام وآثام فإنه يساهم في إظهار نظام العالم³.

فقد أنعم الله على الإنسان بالخير إذ خلق الخير دون الشر ليعيش الإنسان دون آلام سعيدا متمتعًا متحدًا بربه ابداً، إلا أن هذا ما كان ليكون بعد معصية آدم لوصية الله إذ تبدد النظام السائد وتغلغل الشر ليدخل حياة الإنسان، فيهلكه ويعيش الإنسان متدمرًا، تعيسا ومتألما، "يقول لك الله: أنا لم أضع إنسانا شريرا لقد صار شريرا بسبب العصيان، أطاع الشيطان أكثر من الله، فما صنعه إذن جعله عدوك (...). إني اسمع هاتين الكلمتين: انسان وشرير، الأول اسم مخلوق والثاني إسم الخطيئة"⁴.

¹ - القديس أوغسطين: مدينة الله، مج2، مصدر سابق، ص: 35-36.

² - كراس المحرقى: مشكلة الشر، مراجعة وتقديم: نيافة الأنبا رافائيل، (شركة الطباعة المصرية، مصر، ط2، دت)، ص: 26.

³ - زيغور على: الفلسفة في أوروبا الوسيطية وعصري النهضة والاصلاح، مرجع سابق، ص: 136.

⁴ - القديس أوغسطين: إقامة لعازر - لباس العرس، ترجمة وإعداد: مرقوريوس الأنبا بيشوي، (مكتبة النسر، مصر، ط1، 2007)، ص: 28.

ويعرف القديس أوغسطين الخطيئة فيرى أنها " الكلام أو الفعل أو الرغبة ضد القانون الأبدي (...). ما دامت الطبائع هي طبائع لأن الله جعلها كذلك، فإن عصيانها أو انحراف هذه الطبائع عن ماهيتها الخاصة يعني انتهاك القانون الذي وضعه الله فيها بفعل الخلق، ومن ثم فإن استقامة الفعل البشري تقاس بمدى اتفاهه مع الإرادة الإلهية"¹.

فلا بد من أن تتوافق أفعال الإنسان مع القانون الإلهي وان لا تبتعد عنه كي لا تنحرف ولا ترتبط بالشر، فالمعصية أو ارتكاب الإثم يتحقق بانحراف الإرادة إلى كل ما هو ضد القانون الطبيعي فالطبيعة هي الإنسان خير، لذلك لا بد من الحفاظ على هذه الخيرية بتوجيه الإرادة إلى كل ما هو خير وعدم تجاوز الطبيعة الخيرية التي صور الله مخلوقاته عليها، " فاهروب بواسطة الشر (...). يعني التخلي عن سلطان الشريعة الإلهية"².

ولا يمكن أن يتحقق الثبات على الشريعة الإلهية إلا بقهر الشهوات " ذلك لأنكم لم تغلبوا على الشهوات الهائجة فيكم بمشورات الأرواح الشريرة"³، إذ كان لا بد للإنسان من أن يبتعد عن شهواته ويكون زاهدا ليعيش الحياة السعيدة حيث " انتشرت ثنائية القول بالثواب والعقاب وربطتهما بالحياة الدنيا والثقة بالله فالمسيحية أولت الاهتمام بنعيم الآخرة لذلك احتلت مكانة الرفعة والسمو لطلبات الزهد والتقشف"⁴.

فهي تدعوا إلى الابتعاد عن كل ما يمكن أن يفسد الإنسان كإتباع المادة والأهواء والنفس أي كل الشهوات التي يمكن أن توقع به في الشرور، وبالتالي فالشهووات مصدر انحراف سلوكات الإنسان وتحوُّله مما كان عليه من نعيم في مدينة الله إلى كل شرور وألم وعذاب بعد معاقبة الله له بإسقاطه من عليها إلى على الأرض ليعيش تحت سيطرة أهواءه وميولاته، ويرى أوغسطين أنه لا سبيل للخلاص من حياة الإنسان الأليمة هذه بعد سقوطه إلا بالرجوع إلى الله بحبه أي بالمحبة ليصير الإنسان خيرا، يقول أوغسطين: " المحبة فلتكتمل فينا،

¹ - جلسون اتين، مرجع سابق، ص: 381.

² - القديس أوغسطين: مدينة الله، مج2، مصدر سابق، ص:39.

³ - القديس أوغسطين: قيامة المسيح وقيامتنا، ترجمة وإعداد: الأنبا إيساك، (مكتبة السيدة العذراء، الإسكندرية، دط، 1998)، ص:14.

⁴ - حسن حنفي وآخرون: تطور الفكر الفلسفي، (مطبوعات جامعة الإمارات، الكويت، ط1، 1991)، ص: 192.

لنميتها ونغذيها حتى تتكامل (...). حتى بهذا الكمال تتأصل فينا من جديد صورة الله التي عليها خلقنا، لقد تشوهت هذه الصورة بالخطيئة وبليت حينما طمسناها في الأرض"¹.

وهكذا فإن أوغسطين قد رأى أن الشر والخير متعارضان فيما بينهما، فالخير كان سباقا في مدينة الله ليظهر الشر بعد الخطيئة، فالله لم يخلق الشر، وهو يعتبر الشر نوعان أحدهما طبيعي والآخر خلقي " الشر الطبيعي الذي يحسه الإنسان في ذاته أثر الخطيئة وعقاب عليها (...).، اعتبر الأول سوء استعمال الحرية والآخر فساد التكوين"².

وهنا تبرز فكرة الأخلاق، فالأخلاق ترتبط بمشكلة الخير والشر، إذ ان الإنسان يمكنه أن يحافظ على خيرته والابتعاد عن الشر ليحقق أخلاقه، ولن يتحقق هذا إلا بإتباع القانون الإلهي " فالخير هو السير على مقتضى القانون الإلهي الطبيعي، أما الشر فهو مخالفة هذا القانون، ومن هنا نستخلص الحقيقة الوجودية للخير والشر فالخير شيء بالفعل أما الشر فلا يمكن أن يعتبر وجودا حقيقيا بل هو سلب محض، أي أن الشر هو سلب للخير"³.

وهكذا وفي الأخير فإن الخير والشر قد ارتبطا ارتباطا وثيقا في فكر القديس أوغسطين بالخطيئة، فالخطيئة هي أساس كل شرور، إذ فسر أوغسطين خيرية الأفعال وشرها بربطها بإرادة الإنسان الذي خلقه الله حرًا، وخلقه خيرا بطبيعته، فالخير يأتي من الله، بينما الشر هو نقص يحل بالإنسان من جراء خطاياها، وبالتالي لا وجود لشر مستقل بذاته، فلا يمكننا فهم الشر بمعزل عن الخير ولا يمكننا تفسيره إلا في ظل الخير.

¹ - القديس أوغسطين، إقامة لعازر - لباس العرس، مصدر سابق، ص:30.

² - حافظ أشرف، مرجع سابق، ص ص: 55-56.

³ - بدوي عبد الرحمان: فلسفة العصور الوسطى، مرجع سابق، ص:36.

خلاصة الفصل:

وهكذا وفي نهاية هذا الفصل نكون قد توصلنا إلى فكرة ارتباط الأخلاق بالخطيئة، فبعد أن كان العالم خيراً، تسوده الأخلاق الحسنة، تبدد الحال وتحول إلى غير ذلك، إذ كان العالم في بادئ الأمر خيراً لأنه صدر عن خيرية الرب، فالعالم إنما هو فيض من الله، وبما أن الإنسان كان جزءاً من هذا العالم، فقد كان هو الآخر بدوره خيراً، إذ خلق الله الإنسان على صورته وأنعمه وكرمه بأن أسكنه الجنة، ليعيش الإنسان الحياة السعيدة في وئام وسلام، لكنه قد تحول عن ذلك بعد ارتكابه للمعصية، وتجاوزه لوصايا ربه الذي امره بعدم الأكل من ثمار شجرة معرفة الخير والشر التي كانت وسط الجنة، لكن الإنسان الأول بإرادته الحرة، ارتكب الإثم، رغم أن إرادته كانت خيرة، إلا أن الإنسان خلق حرّاً، إذا حرّيته هذه قد بددت خيريته إلى شره فانتقل بذلك الشر إلى هذا العالم بعد أن كان لا يسوده سوى الخير وبهذا انحلت الأخلاق، وانتشر الفساد، وساد الظلم والجور ليعيش الإنسان على الأرض بعد أن اسقطته خطيئته إليها، في شقاء وعذاب، تملأ حياته الأمراض والآلام والمتاعب.

الفصل الثاني

الخطية والسياسة

تمهيد

المبحث الأول: الدولة

المبحث الثاني: العدالة

المبحث الثالث: القانون الإلهي والقانون الوضعي

خلاصة الفصل

تمهيد:

يعتبر القديس أوغسطين فيلسوفا لاهوتيا، لكن رغم ذلك إلا أنه لم يهمل الجانب السياسي في فكره إذ تطرق له وعالج عدة قضايا مرتبطة بالسياسة مثل الدولة والعدالة والسلطة فقد هدف دائما إلى الدفاع عن الكنيسة والدين المسيحي، خصوصا حين عايش واقعة سقوط روما ومهاجمة الوثنيين للمسيحية، من هذا المنطلق إذن حاول أن يعالج القضية السياسية المتعلقة بالإمبراطورية الرومانية من منطلق لاهوتي ليرز أهمية المسيحية في قيام الدولة.

ومن هذا نطرح الإشكال التالي:

- كيف ربط القديس أوغسطين القضايا السياسية بالجانب الروحاني الديني؟

المبحث الأول: الدولة

تعتبر فكرة الدولة عند القديس أوغسطين من بين أهم القضايا التي عالجها في فكره السياسي واللاهوتي حتى، إذ اعتقد بوجود مدينتين إحداهما سماوية والأخرى أرضية، وان الدولة تنبثق من الانفصال بينهما، لذا كان جدير بنا أن نتطرق أولاً إلى مسألة المدينتين عند القديس أوغسطين، لتتطرق بذلك إلى مفهوم الدولة عنده.

أولاً: مدينة الله ومدينة الأرض

اعتقد أوغسطين دائماً أن العالم منذ حادثة سقوط آدم أي منذ وقوع الخطيئة، انقسم إلى مدينتين إحداهما مدينة الله وهي المدينة السماوية، والأخرى مدينة الشيطان وهي المدينة الأرضية التي أصبحت مسكناً للإنسان كعقاب من الله لآدم وذريته من بعده، بعد اثمه وعصيانه لربه بطاعة لأوامر الشيطان، وهكذا فإنه قد أصبح هناك " نظام مختص بأناس يعيشون حسب الجسد، وآخر مختص بأناس يعيشون حسب الله، لإحداهما معدة أن تعيش إلى الأبد مع الله، والأخرى تعيش في العذاب مع إبليس"¹، فالإنسان في نهاية الأمر يعيش مع هاته أو تلك من المدينتين بحسب ميله إلى أحد جانبيه، إذ يرى أوغسطين أن في الإنسان جانبان إحداهما روحي والآخر جسدي، الروحي يميل إلى مدينة الله، والجسدي يميل إلى مدينة الأرض " فمدينة البشر للذين يهون العيش بسلام بحسب الجسد، ومدينة الله للذين يهون العيش بسلام بحسب الروح، وحين تتحقق أمنية هاته وتلك تعيش كل منهما بسلام بحسب طريقتهما الخاصة"².

وهكذا فالإنسان أصبح ينتمي في الوقت نفسه إلى مدينتين إحداهما شاقة والأخرى يستطيع أن ينعم فيها بالهناء الدائم.

¹ - القديس أوغسطين: مدينة الله، مج2، مصدر سابق، ص: 215.

² - المصدر نفسه، ص: 156-157.

فهو إذن " مواطن لدولتين في نفس الوقت، دولة الأرض والتي تتمثل في الدوافع الدنيوية وتستههدف لتسلط و التملك، دولة الله وهي التي تستهدف السلام والخلاص الروحي".¹

إذن يمكن أن نربط تقريبا كل فكر القديس أوغسطين اللاهوتي والأخلاقي والسياسي وغيره بنظريته التي تدور حول وجود مدينتين، فهو يعتقد بوجودهما معًا، إحداهما فقط هي المدينة الحقّة التي على الإنسان أن يسعى إليها جاهداً، ليتخلص من عذابه وشقائه في إحداهما وينتقل إلى حياة أمثل بانتمائه إلى الأخرى، ففي النهاية " هما متداخلتان ومتشاركتان وستضلان هكذا حتى الدنيوية الأخيرة التي فيها يتميز السكان".²

وانطلاقاً من هذا أي من فكر أوغسطين حول المدينتين تأسس مفهومه حول الدولة، رابطاً ذلك بتاريخ سقوط روما، لهذا لا بد لفهم الدولة عند أوغسطين من عرضنا لتاريخ روما والمسيحية.

ثانياً: الدولة الرومانية واضطهادها للمسيحية:

لقد تأسست الإمبراطورية الرومانية بعد أن " ازدهرت أركانها، إذ اتجهت نحو التوسع الخارجي، مما مكنها من إقامة الإمبراطورية التي تخضع لحكم مركزي وتنقسم إلى إمارات يتولى حكم كل منها حاكم روماني أما عن المؤسسات السياسية في هذا العصر فقد أعلن الإمبراطور إبقاءه في بادئ الأمر على نفس المؤسسات (...) التي تتمثل في مجلسي الشيوخ والشعب، إلا انه ما لبث أن عدل عن هذه المؤسسات وأصبح يستأثر بالسلطة وحده"³، وبهذا فإن نظام الحكم في الإمبراطورية الرومانية كان نظاماً تعسفياً، إذ ان الحكم كله بيد الإمبراطور لوحده" ويمكن في عبارة موجزة، إجمال نظام الحكومة الإمبراطورية (...) بأنه ملكية مطلقة (...) إذ كان تقديس الأباطرة إلى حد العبادة (...) فكثيراً ما كان الحكام الرومان يُعبدون بوصفهم آلهة محليين"⁴ وبهذا فالسلطة والتسلط إذن كان المميز للحكم الروماني وهذا ما هو إلا ثمن للخطيئة الأولى.

¹ - محمد ابراهيم تركي، مرجع سابق، ص: 216.

² - القديس أوغسطين: مدينة الله، مج1، مصدر سابق، ص: 08.

³ - محمد فضل الله اسماعيل: فلسفة السياسة، (دار الجامعة الجديدة، الإسكندرية، دط، 2008)، ص ص: 270-271.

⁴ - جيون ادوارد: اضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها، تر: محمد علي ابو درة، مر: أحمد نجيب الهامش، (الهيئة المصرية للكتاب، مصر، ط2، 1997)، ج1، ص: 90.

" إذ كان البشر يعيشون حياة خالية من أي سيطرة من الإنسان على أخيه الإنسان، ولكن ثمن الخطيئة هو ولادة تلك السيطرة وهذا أمر شرعي"¹، فانتشر بذلك الظلم والجور وكل الأخلاق السيئة التي ميزت الدولة الرومانية لسنوات طوال قبل اعتناق المسيحية، لكن " التاريخ يروي لنا أنه في القرن الثاني والثالث والرابع الميلادي قد دخل الرومان والمصريون أفواجا أفواجا في المسيحية"²، لكن رغم ذلك، ورغم كل ما جاء به الدين المسيحي من تعاليم للحياة الأخلاقية، إلا أن جور الأباطرة جعلهم يناهضون هذا الدين"، إذ يمكننا أن نتصور مقدار الخنق الذي كان يشعر به وال... عندما كان يرى أمامه شابا رومانيا قوي العضل متين البنية يقف أمامه ويفرض اخماد فتنة تهدد الدولة بالخطر العظيم، لأنه ينتمي إلى جمعية صغيرة تدعى جمعية المسيحيين تأمر أعضائها بالألا يمتشقو حساما ولا يدخلوا في حرب (...). وكان مثل هذا الوالي يقرأ الإنجيل فيجده ينطوي على الثورة على الأغنياء والأقوياء (...). وكان يقرأ وصفا للمدينة الفاجرة (...). فيجد اللعنات المتوالية تصب على رؤوس الكفار (...). فلا يفسر ذلك (...). إلا بأن المدينة هي رومية وبأن الكفار المتسلطين هم الرومانيون"³، وبهذا شن الرومان على المسيحية عدااء كبيرا حتى وصل بهم الأمر إلى أن يتهموا الدين المسيحي أنه كان السبب في سقوط روما بعد هجوم القوط عليها ورأوا لو أنهم بقوا على ما كانوا عليه من عبادة الآلهة لما حدث بهم ما حدث فما كان ذلك إلا غضبا من آهتهم لتركهم إياها، لكن هذا ما اثار حفيظة رجال الدين المسيحي وواجهوا هذه الاتهامات، وكان من بينهم القديس أوغسطين الذي رأى أن الإمبراطورية الرومانية مدينة أرضية مآلها الزوال، وأن المسيحية هي أساس استمرار المدينة وان ما حدث مع روما يمكن تفسيره " بضعف الخاصيتين الأخلاقيتين اللتين قامت عليهما ألا وهما حب الحرية وطلب المجد"⁴، وأن المسيحية هي بالعكس تماما مما اعتقدوه بها.

¹ - سعد جورج : تطور الفكر السياسي في العصور القديمة والوسطى، (منشورات الجبلي الحقوقية، لبنان، دط، 2002)، ص: 146.

² - ابو زهرة محمد: محاضرات في النصرانية، (دار الفكر العربي، القاهرة، ط3، 1961)، ص: 33.

³ - سلام موسى: حرية الفكر وأبطالها في التاريخ، (إدارة الهلال، مصر، دط، دت)، ص: 39.

⁴ - الخضيرى زينب محمود، مرجع سابق، ص: 145.

ثالثا: دفاع أوغسطين عن المسيحية:

حاول أوغسطين أن يدافع بكل ما يملك من جهد عن المسيحية من اتهامات الوثنيين لهذا الدين، إذ اعتبر أن روما دولة زائلة لا محالة فهي من المدن الأرضية التي لا بد من أفولها، وأما الدائم والباقي فهي مدينة الله وحدها" ففسر سقوط روما باعتبارها مدينة أو مملكة أرضية لا بد أن يكون مصيرها إلى الزوال لما في المملكة الأرضية دائما وأبداً من عوامل الانحلال والفوضى والصراع ونزاعات البشر والعدوان والتحكم والاستلاء ويرى أوغسطين أن المدينة الباقية الأزلية هي مدينة الله، وهي مملكة المسيح (...). وتحسدت في الكنيسة وفي الإمبراطورية التي اعتنقت المسيحية"¹، فيرى هنا أن الدولة الأرضية إنما هي عالم الشر والزوال بينما يتجسد الخير و السلام في الكنيسة التي رأى فيها مملكة الله واعتبرها المدينة الأمثل، إذ لا بد على الإنسان أن يكون مسيحياً، عقيدته المسيحية لأنها هي وحدها التي تمكنه من أن يسمو إلى الحياة السعيدة في مدينة الله السرمدية، وهنا نلاحظ تأثر أوغسطين الكبير بفكر أفلاطون* السياسي فيما تعلق منه بتقسيمه هذا العالم إلى عالمين احدهما أرضي والآخر سماوي وأن الحياة الحقيقية هي الحياة التي يعيشها الإنسان في عالم المثل وان ما نعيشه في العالم المحسوس زائل، ومن هذا المنطلق " ينظر أوغسطين إلى أفلاطون على أنه أعظم الفلاسفة الوثنيين، فهو الفيلسوف الذي يقترب تفكيره إلى حد كبير من تفكير المسيحية، ويمضي بعيداً ليتحدث عنه بوصفه الفيلسوف الذي كان يصبح مسيحياً لو أنه عاش في العصور المسيحية، ومع ذلك فإن مصدره الرئيسي للمعرفة المتعلقة بفلسفة أفلاطون السياسية ليس هو أفلاطون نفسه الذي لم يكن لديه سوى اقتراب محدود من محاوراته، وإنما صياغة شيشرون** الرومانية"²، إذ نلاحظ أن فلسفة أوغسطين السياسية كانت مستقاة بشكل كبير من فكر شيشرون السياسي، إذ يعرف الدولة بأنها "«مصلحة الناس المشتركة» وعرفها كذلك بأنها «مجتمع القانون» (...). ويخلص إلى ثلاث نتائج هي:

¹ - محمد مهنا نصر: في تاريخ الأفكار السياسية وتنظير السلطة، (المكتب الجامعي الحديث، الإسكندرية، دط، 1999)، ص: 112.

*- أفلاطون: اعظم فيلسوف في العصور القديمة، ولد عام 467 ق م، من اسرة ارستقراطية اثينية، هو احد تلامذة سقراط، صاحب المدرسة المعروفة باسم الاكاديمية. و هو أول المؤسسين للفلسفة المثالية. انظر: جورج طرايشي، مرجع سابق، ص: 71.

** - شيشرون: هو شيشرون مرقرتوليوس، كاتب وخطيب وفيلسوف لاتيني، ولد عام 106 ق م في ارينوم ومات في 7 كانون الاول 43 ق م، اشتهر باسم شيشرون وكان الاصح تعريب اسمه بقيرون. انظر: المرجع نفسه، ص: 409.

² - ليو شتراوس جوزيف كروبسكي: تاريخ الفلسفة السياسية، تر: محمود سيد أحمد، مر وتق: امام عبد الفتاح امام، (المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، دط، 2005)، ج1، ص: 268.

1. تستمد الدولة سلطتها من قوة أفرادها مجتمعين (...).
 2. السلطة السياسية لا يمكن أن تتصف بالشرعية ما لم تركز على الإدارة العامة للشعب (...).
 3. الدولة نفسها وقوانينها كلها تخضع للقانون الأعظم وهو قانون الإله أو القانون الطبيعي¹.
- أما أوغسطين فقد ربط نشوء المجتمع أو المدينة ربطاً وثيقاً بفكرة المحبة، إذ يرى أنه لا بد من أن يجتمع الناس في مجتمع ما على محبة شيء مشترك² ولفهم نشوء المجتمع، تكفي ملاحظة حشد عمومي لحضور عمل مسرحي، ويجتمع المتفرجون الذين يجهلون بعضهم البعض دون أن يشكّلوا مجتمعاً، إلا أنه إذا كان أحد الممثلين ذا مواهب فإن الإعجاب المشترك به يؤلف فيما بينهم تعاطفاً متبادلاً، وإذا صاروا يتبادلون الحب فما ذلك إلا بسبب الممثل الموهوب الذين اشتركوا في حبه²، كذلك تماماً يشترك الناس في حب الله ليشكّلوا مجتمعاً فيما بينهم، ومن يحب الله سيجد نفسه في علاقة مجتمعية مع الأفراد الآخرين المحبين هم الآخرون بدوهم لله، فالحب هو الرابطة الاجتماعية والمؤسس للمدن يربط الصلة بين الأفراد.
- لكن محبة الله هذه قد تبددت من قبل في قلب الإنسان الأول لتنتقل بطريقة أو بأخرى إلى أبنائه وبهذا كان نتاج الخطيئة الأولى الظلم والاكراه والجور في كل ما تمثل منه في التسلط، الحروب، الملكية، الرق وغيرها كثير، ويرى أوغسطين أنه للتخلص من هذه الأعباء التي ورثت عن الخطيئة كان لا بد من أن يتحد الإنسان بربه من جديد وهذا لن يكون إلا انطلاقاً من المسيحية ذاتها والكنيسة، إذ كان حلمه دائماً هو التوحيد بين السلطة السياسية والكنيسة لكن سقوط روما حال دون ذلك وتبخر ذلك الحلم بل وتحول إلى كابوس إذ وقعت المسيحية في مأزق كان الحل الوحيد للتخلص منه في نظر أوغسطين هو الفصل بين الدين والدولة³ فاستقرار المسيحية لن يتحقق إلا بنوع من الفصل بينهما وبين السياسة مع الاكتفاء بجعل العلاقة بين الطرفين هي علاقة تعايش سلمي³.
- وهكذا أصبح القديس أوغسطين بعد سقوط روما لا يهتم فقط بالقضايا الدينية بل حتى القضايا السياسية منها، إذ أراد تحقيق التعايش السلمي بين الكنيسة والدين، لكن هذا ما رفضه دوناتوس* قائد

¹ - محمد فضل الله اسماعيل، مرجع سابق، ص: 273.

² - زيغور علي: الفلسفة في أوروبا الوسيطة وعصري النهضة والإصلاح، مرجع سابق، ص: 177.

³ - الخضير زينب محمود، مرجع سابق، ص: 187.

* - دوناتوس: Donatus، هو زعيم الحركة التي قاومت ترشيح ورسامة احد قساوسة كنيسة قرطاجنة اسقفا عليها سنة 311 ميلادية بعد موت اسقفها. مما أدى الى انشقاقه عن الكنيسة، وقد كان الانشقاق الاخطر الذي عانته الكنيسة في القرون الاولى، و امتد نحو ثلاثة قرون. انظر: محمد ابراهيم تركي، مرجع سابق، ص ص: 156-157.

الدوناتية* الذي المتقد ان الكنيسة عليها أن لا تخرج عن وظيفتها الدينية، ودورها الروحي، ولهذا اندفع أوغسطين لمقاومة الحركة الدوناتية المتمردة على الدين " ويبدو أن هذه الحركة الانشقاقية عن الكنيسة الرومانية لم تكن في جوهرها حركة دينية بحتة، وإنما كانت ذات طابع سياسي واجتماعي حيث كان هدفها هو الخروج على الدولة الرومانية¹، فقد كانت على عداء شديد مع روما، فشنت ضدها حروباً عديدة تصدياً للتدخل السياسي في الكنيسة، وبهذا تصدي أوغسطين للدوناتية، حيث يقول: " وكان قد صدر تشريع قضى بوقف البدعة الدوناتية، وحظرها حظراً تاماً، لما تحمله من عنف وهجية وبربرية"².

وهكذا فقد كان الصراع بين القديس أوغسطين والدوناتية صراعاً سياسياً على الرغم من أن ظاهره كان يبدو صراعاً دينياً، حيث كان بين " أنصار الرومنة والتطبيع مع الرومان وكان يتزعمهم في ذلك القديس أوغسطين (...) وبين أنصار الثورة الذين (...) يحاربون الإمبراطورية اللاتينية (...) وكل من يقوم بخدمة النظام الروماني (...) وكان يمثل هذا التيار الثوري القائد الديني القديس دوناتوس"³، لكن رغم ذلك الصراع كله إلا ان أوغسطين بقي محافظاً على موقفه بفرض التعايش السلمي بين الدين والدولة في ظل جعل ما للدولة من شأن الدولة وما للدين من شأن الدين وهذا ما استنتجه أوغسطين من قول المسيح حين " أتوه بدينار، فقال: لمن هذه الصورة والكتابة؟ قالوا لقيصر، فقال: أعطوا ما لقيصر لقيصر، وما لله لله"⁴.

وفي هذا جعل أوغسطين " طاعة الحاكم واجبة بصرف النظر عما إذا كان صالحاً أو فاسداً حيث أن «سلطانه من عند الله» ... فالله هو الذي سلطه إذا كان شريفاً، وهو يؤكد على ضرورة تحمل الظلم وعدم مقاومة الشر وذلك وفقاً لتعاليم المسيحية، هذا عن إعطاء قيصر ماله"⁵.

فالسُّلطة إذن مصدرها إلهي " فالله ينظم كل شيء، ويخضع كل بلد، وفي كل عصر لنظام الحكم الموافق لذلك العصر، و يعطي الله لكل دولة النظام الذي تستحقه"⁶، وعليه فعلى الشعب الرضى بنظام الله

* - الدوناتية: هي الحركة التي تزعمها دوناتوس لفصل الدين عن الدولة، وسميت بالبدعة الدوناتية، لما تحمله من عنف وهجية و بربرية. انظر: هنري ايرنيه مارو، مرجع سابق، ص: 117-118.

¹ - محمد ابراهيم تركي، مرجع سابق، ص: 157.

² - نقلاً عن: المرجع السابق، ص: 118.

³ - المرجع السابق، ص: 157.

⁴ - محمد عبده: الاسلام والنصرانية بين العلم والمدنية، تقديم: بهان عليون، (مؤم، الجزائر، دط، 1987)، ص: 64.

⁵ - محمد فضل الله اسماعيل: نماذج من المشكلات الفلسفية، (مكتبة بستان المعرفة، الإسكندرية، دط، 2001)، ص: 135.

⁶ - زيغور علي: الفلسفة في أوروبا الوسيطية وعصري النهضة والإصلاح، مرجع سابق، ص: 178.

وعدم مقاومة السلطة والرضى بها هي الأخرى وطاعة الحاكم مهما كانت إدارته وحكمه، "فالأمير وزير الله ومن الضروري طاعته حتى يستقر السلام والعدل، ولما كانت كل سلطة مصدرها الله فهو الذي يعطيها للابراز والأشرار لذلك أصبحت طاعته واجبة"¹، وبهذا فقد فرض أوغسطين طاعة الحاكم لأنها من طاعة الله لأن روح فلسفته هي المسيحية ذات التعاليم الدينية الراقية التي أساسها المحبة والتسامح.

وحتى "النظام" فقد رأى أوغسطين أنه "يجب على النظام أن يخضع لأوامر الكنيسة (...). وكان يهتم بإقامة الإمبراطورية الرومانية على أساس الديانة المسيحية (...). والدفاع عن السلطة الحاكمة التي تخضع وتعمل وفق السلطة الروحية للكنيسة، كما يرى بأن الكنيسة تسعى إلى تحقيق العدالة الاجتماعية والسياسة"²، إذ إن السلطة الدينية ذات نظام محكم فهي سلطة نابعة من حكمة الله العادل المنصف، وعليه فإن نظام الحكم كان لابد وأن يتخذ من الكنيسة تعاليم الدين المسيحي قانوناً له يتبعه ويسري عليه.

وفي هذا كله وفي الأخير نلاحظ أن القديس أوغسطين قد علق سياسة الدولة المفروض تحقيقها بالديانة المسيحية، من نظام حكم وسلطة وغيره، فالحكومة الصالحة هي التي تتحدى بتعاليم الديانة المسيحية الفاضلة التي تُقوِّمها أساساً فضائل التسامح والمحبة والأخوة التي من شأنها أن تحقق الأمان والسلام، وتسعى إلى رعاية وحماية مواطنيها، وتنشئهم على الأخلاق المسيحية القومية، فالدولة المتينة هي الدولة التي تتبنى المسيحية، وعلى الإنسان أن يعيش وملاً قلبه بالإيمان بالعقيدة المسيحية، فبالإيمان يمكن السمو إلى مدينة الله الأرض الموعودة، فالخلود من حليف المدينة السماوية المتمسكة بالدين المسيحي، وما المدن الأرضية إلى مدن زائلة لا محالة كالإمبراطورية الرومانية أو غيرها من الحضارات التي سبقتها والتي ستأتي من بعدها كما يرى القديس أوغسطين.

¹ - محمود سعيد عمران وآخرون: النظم السياسية عبر العصور، (دار النهضة العربية، بيروت، ط1، 1999)، ص: 176.

² - عبد المجيد عمري: محاضرات في تاريخ الفكر السياسي، (منشورات جامعة باتنة، باتنة، دط، 1999)، ص ص: 59-60.

المبحث الثاني: العدالة

إن سقوط الإنسان وخطيئته ما كانت لتكون لولا المطالب الغرائزية النابعة عن الطبيعة الإنسانية والتي أدت إلى التعمد في العصيان والتمرد على أوامر الله، ولأن الدولة كانت نتيجة للإثم وابتعاد الإنسان عن الله فإنها شريرة في أصلها، وبما أن الإنسان قد سبق له وأن تمرد على الله، فإنه بعد سقوطه تمرد على أخيه الإنسان لتنتشر الكراهية والعداوة وتنقسم الناس إلى فئات وطبقات يختلف بعضها عن بعض، وهذا الاختلاف أدى إلى انتشار الظلم وبالتالي لا بد من ضوابط تزيل هذا الظلم والباطل وتبرز الحق، ألا وهي العدالة.

- فكيف للعدالة من ضبط تمرد الإنسان؟

أولاً: مفهوم العدالة

إن العدالة لا بد منها في ظل وجود السيطرة بين البشر لتنظيم الحياة وتحسين العلاقات بين الأفراد الذين ساد بينهم التمرد والعصيان بعد أن ورثوه عن آباؤهم الأولين آدم وحواء، ولا يمكن كبح تمردهم هذا إلا عن طريق الدولة وضوابطها " إذ دعت الحاجة إلى تنظيمهم في طبقات مع فرد واحد منهم يقوم بحكمهم حتى يمكن ارغامهم على اتباع مبادئ الاستقامة والعدالة والمعاملة"¹.

وبما ان طبيعة الإنسان اجتماعية فإنه يرتبط مع اقرانه داخل المجتمع فيكون معهم علاقات اجتماعية وسياسية لتتكون الدولة بذلك من خلالهم، ولأنهم مختلفون وتختلف مصالحهم فإن ما ينظمهم هو العدالة "فالعدالة هي حجر الأساس للمجتمع المدني فعليها تعتمد وحدة أي مجتمع بشري ونبله، وتحافظ على السلام الخير العام للمجتمع، وشرط كل المنافع الأخرى التي يحصل عليها المجتمع، وبدون السلام، أي «النظام الهادئ» لا يستطيع أي مجتمع أن يزدهر أو حتى يبقى"²، فأساس قيام الدولة واستمرارها هي العدالة إذ أنه "حيث لا عدالة، لا جمهورية"³، لأن العدالة مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالحق، فالحق لا يأتي إلا بتحقيق العدالة هذه الأخيرة هي الإنصاف بإعطاء الحق لصاحب الحق " فالعدالة هي هذه الفضيلة التي تعطي كل واحد

¹ - محمد ابراهيم تركي، مرجع سابق، ص: 211.

² - ليو شتراوس جوزيف كروبسكي، مرجع سابق، ص: 269.

³ - القديس أوغسطين: مدينة الله، مج3، مصدر سابق، ص: 151.

حقه¹ في ظل الجشع والظلم والسيطرة والقوة التي نتجت عن الخطيئة ليتوارثها البشر، فالإنسان بعد حرية إرادته التي أدت به إلى السقوط في الإثم تعود على هذه الحرية التي بقيت معه بعد السقوط ليعيش مسبقاً ظالماً، اعتقاداً منه أن سيطرة الأقوى على الضعيف إنما هي الحق لكن الصحيح هو أن " أساس الحق العدالة لا منفعة الأقوى، وأساس استخدام القوة إنما وسيلة جعلتها الخطيئة ضرورية لتأييد العدالة (...)، إن من العدل تدبير الأخلاق بحسب اختلاف أحوال لإنسانية الخاطئة، فلا ينبغي اتهام شعب بالرديلة إذا ما بدت لنا حكمته أدنى من حكمة شعب آخر أو عصر آخر، إن العدالة ثابتة لكن الناس متغيرون"².

فالناس بتغيرهم هذا تتعدد تجمعاتهم وتختلف من تجمع إلى آخر حسب تمايزهم واختلافهم لهذا ربط أوغسطين المجتمع بالعدالة وجعلها ركيزة قيامه، فالعدالة هي أساس الدولة وضبط العلاقات بين أفرادها فينشأ مجتمع عادل، لذلك " انتهى إلى أن العدالة التي تقوم عليها المدينة لا بد وأن تكون عدالة حققة"³.

لتكون تلك المدينة مدينة حققة هي الأخرى، وهو يرى أنه لا يمكن أن يكون ذلك بدون المسيحية أي بدون الارتباط بالرب، ليسموا الإنسان إلى مدينة الله، " فإذا عاشت الجماعة في ظل المدينة الربانية فإنها تحقق العدالة التي يصبح فيها كل فرد يحترم الواجبات الملزم بأدائها حاصلًا على الحقوق الممنوحة له، ومن ثم يكون كل شيء داخل ضمن الملكوت الإلهي الذي ارتضاه الله لعباده، وحتى الدولة التي تخرج عن هذا النظام الإلهي فهي دولة ظالمة، وتكون عكس ذلك كلما عملت بالقانون الإلهي، لأن القانون والعدل متلازمان، وكل مجتمع عاش بلا قانون فلن يكون فيه دولة بهذا المعنى"⁴، لذلك لا بد من السير على القانون فمن خلاله تتحقق العدالة، فهو الضابط بين الحق والباطل، ومن ناحية أخرى فإن القانون لا يمكن أن يكون من دون عدالة، فإذا غابت العدالة فشل القانون وأصبح لا جدوى منه فالقانون الحق هو الذي يتأسس على العدالة ليحقق في النهاية العدالة " فحيثما لا تكون هناك عدالة، لن يكون هناك حق والعكس صحيح"⁵، يقول أوغسطين في هذا " حيث لا عدالة صحيحة فلا يمكن للحق أن يكون، لأن ما يعمل بحق، يعمل بعدل، وما

¹ - القديس أوغسطين: مدينة الله، مج3، مصدر سابق، ص: 151.

² - كرم يوسف، مرجع سابق، ص: 48-49.

³ - الخضيرى زينب محمود، مرجع سابق، ص: 164.

⁴ - زروخي اسماعيل: دراسات في الفلسفة السياسية، (دار الفجر، القاهرة، ط1، 2001)، ص: 174.

⁵ - ليو شتراوس جوزيف كروبسكي، مرجع سابق، ص: 269.

يعمل بلا عدالة لا يعمل بحق (...). ان الحق ينبع من العدالة"¹، والعدالة في نظر أوغسطين تنبع من روح المسيحية، فهو يرى أن استمرار الدولة يكون بتطبيق العدالة المسيحية وإن كان غير ذلك فهي زائلة لا محالة " فالعدالة الحقيقية هي فقط تلك التي تسود في هذا الشيء العام الذي أسسه المسيح، إنها مدينة الله"²، أي بالعودة إلى الله والارتباط به لأن " العدالة الإنسانية أساسها العودة إلى الله (...). إذ ان جوهر العدالة يكمن في العلاقة بين المرء والرب، وتنبثق عنها بالتأكيد العلاقات السليمة بين الإنسان والإنسان"³.

فبعد خراب علاقة الفرد بربه بسبب الخطيئة نُخرت كذلك علاقة الأفراد مع بعضهم البعض وانتشر الكره والعداوة لذلك لا بد أولاً من تصليح العلاقة الأولى التي تكمن مع الله لتصلح بذلك باقي علاقاتنا الأخرى وينتهي الصراع والسيطرة وهذا بطبيعة الحال لن يتحقق إلا بالدعوة إلى الدين الحق وهو المسيحية إذ " أنه لا يمكن تحقيق العدالة الاجتماعية والسياسية مادامت الدولة غير مسيحية، ويجب على النظام أن يخضع لأوامر الكنيسة"⁴.

فالمسيحية هي دين العدل، والعدالة المسيحية هي العدالة الحقّة، وانطلاقاً من فكر أوغسطين في العدالة والذي يؤكد على العدالة المسيحية فإن أوغسطين قد شرع للعديد من الأمور السياسية كالحرب والملكية والرق لأنه من العدالة تشريع ذلك.

ثانياً: مشروعية الحرب

اعتبر أوغسطين " الحرب (...). مشروعية، بل وضرورية أيضاً لانتظام الحياة المجتمعية، ولكن يجب أن لا تخرج تلك الحرب عن مبادئ الرحمة، وطالب بأن تسود روح المحبة حتى بين الأعداء المتحاربين"⁵، هذا لأن روح فلسفته هي المسيحية ذات التعاليم الدينية الراقية التي أساسها المحبة والتسامح، إذ تدعوا تعاليم الكتاب المقدس لعدم مقاومة الشر وضرورة الرد بالحسن على المسيء، وبالتالي فإن مشروعية الحرب تكون في حالة ما إذا كانت الحرب مصبوغة بطابع الإنسانية، فالحرب ليست شراً مثل ما يتبين من ظاهرها، فهي قد تتسم بالألم

¹ - القديس أوغسطين: مدينة الله، مج3، مصدر سابق، ص: 150.

² - جورج سعد، مرجع سابق، ص: 174.

³ - مصطفى النشار: تطور الفلسفة السياسية من صولون حتى ابن خلدون، (الدار المصرية السعودية، القاهرة، دط، 1982)، ص: 129.

⁴ - عبد المجيد عمراني، مرجع سابق، ص: 59.

⁵ - مصطفى الفوال صلاح: سوسيولوجيا الحضارات القديمة، (دار الفكر العربي، القاهرة، ط2، 1982)، ص: 292.

والموت والخراب حقا، لكن في النهاية ما كان هذا ليكون إلا من أجل تحقيق السلم، فهو يرى أن للحرب غاية هي السلام الدائم لا السلام المؤقت لفترة محدودة، " إذن فالحرب مشروعة متى كانت الوسيلة الوحيدة لصيانة الحقوق المهتدة، والموت فيها حياة الأجيال التالية"¹ وسلامهم، وليتحقق هذا السلام كان لابد من أن يتحد الجميع ويتفقوا ليؤدي كل واحد واجبه على أكمل وجه وأن يخضعوا للحاكم وقائد الحرب ويطيعوا أوامره ولا يعصوها مهما كان الوضع، فواجب الجندي في الحرب " أن يطيع إن طُلب إليه القتل، فهو هنا غير قاتل، أي غير مرتكب خطيئة بقتله لشخص خلقه الله وهو الذي يمتهه، حتى لو آمن الجندي بأي حربه غير عادلة فعليه الطاعة والقتال، ولا يجوز له أبدا أن يعصي الأوامر إلا وقع في خطيئة التمرد، فالإثم في حرب جائرة لا يقع على الجندي، بل على الحاكم الذي قاد إليها"².

ثالثا: مشروعية الملكية ونظام الرق

كما شرع القديس أوغسطين للحرب فقد شرع أيضا للملكية ونظام الرق فهو يرى أنه لابد منهما مادام للعالم أو المدينة الأرضية وجود فهما مظاهر الإنسان الساقط، إذ أن الخطيئة التي ارتكبتها آدم، وانتقلت بطريقة أو بأخرى إلى ابنائه قد انتجت الظلم والإكراه الذي أدى إلى ظهور الملكية الخاصة والرق، فأما بالنسبة للملكية فقد نقد أوغسطين الملكية الفردية ودعى للملكية الجماعية، لكن مع ذلك لم يكن ضد الملكية الفردية بشكل كلي ولم يرفضها بل على العكس من ذلك تماما، فقد شرع لها إلا انه آمن بأن " المالك الحقيقي للأرض وما عليها هو الله سبحانه وتعالى، وما ملكية الأفراد إلا حيازة مشروعة مؤقتة وان كل ما يترتب على الملكية الفردية من حقوق إنما هي مستمدة من الذات الإلهية لذلك وجب على الدولة حمايتها والمحافظة عليها"³.

فمن المُشَرِّع به أن يكون للإنسان ملكية خاصة فلا مشكلة في ذلك، وإنما المشكلة تكمن في طريقة تملك الفرد لمختلف الخيرات والنعم، إذ يتملكها بجشع ويتمتع بها لوحده، متناسيا أنها ملك لله، وهكذا فقد " ميز أوغسطين بين الملكية والتملك من حيث أن التملك يكون بأساليب جشعة تصل إلى حد السرقة والاعتصاب والاستلاء على الممتلكات والتي تقود إلى الحروب والانقلاب على الأنظمة الاقتصادية السائدة، أما الملكية فهي الحيازة المشروعة للأموال وبالتالي الإشكال لا يكمن في الملكية وإنما في طريقة التملك، ومهما

¹ - حافظ أشرف، مرجع سابق، ص: 65.

² - زيغور علي : الفلسفة في أوروبا الوسيطة وعصري النهضة والإصلاح، مرجع سابق، ص: 182.

³ - مصطفى الفوال صلاح، مرجع سابق، ص: 291.

اجتهدت الدولة في ارساء القوانين فإنه من الاستحالة تطبيق العدالة، التي تبقى ناقصة دائما لأن العدالة الحقيقية تكون في مدينة الله، هناك يكون توزيع الأملاك مشروعاً وعادلاً¹.

وكما شرع القديس أوغسطين للملكية فقد أيد أيضاً نظام الرق، و رأى أن مقاومة هذا النظام بغية تغييره ليس أمراً صائباً فهو قائم وسيظل كذلك مادام الإنسان ضمن المدينة الأرضية، فهو نتيجة ضرورية لارتكاب الإنسان للخطيئة ومن مظاهر عقابه عليها، وبالتالي فإن محاربة الرق ورفض هذا النظام إنما هو فتيل إشعال نار الثورات إذ يؤدي ذلك إلى "انقلابات اجتماعية، الكنيسة في غنى عنها، حيث كانت مسؤولة في عصره عن عالمي السماء والأرض في آنٍ واحد"²، لهذا فنظام الرق مشروع، هذا ما سنّه النظام الوضعي، فقبل الخطيئة كان الإنسان حرّاً سيداً على نفسه أو الحيوانات فقط "فالأبرار الأولون أقيموا رعاة على القطعان ولم يكونوا ملوكاً على بشر، أراد الله بذلك أن يعلمنا منطوق نظام الخليقة وما تفرضه العدالة المرعية على الخطيئة إننا ندرك أن العبودية فرضت على الخاطئ بعدل"³، لكن رغم ذلك أي رغم تشريع القديس أوغسطين للعبودية والتالي للطبقية إلا أنه ينادي بالمساواة داخل المجتمع وبين أفراد الطبقات المختلفة وضرورة الاخوة حيث يجب أن يُعامل الرق من قبل ملائكتهم بكل احترام وتقدير وأن لا تُنزع عنهم إنسانيتهم، يقول أوغسطين: "ما كانوا يتميزون بين عبيدهم وأولادهم إلا في الخيور الزمنية فيما يختص بشؤون العبادة الدينية التي منها ترجى الخيور الأبدية، كانوا يهتمون بمحبة متساوية في تأمين المصلحة لجميع أعضاء البيت"⁴، أي أن العبيد في البيت متساوون مع أهل البيت في حد ذاتهم إذ تتحقق المساواة بين العبد ومالكه.

وهكذا إذن وفي الأخير فإنه كان من العدل تشريع الحروب والملكية ونظام الرق، من العدل الإلهي فما هذا إلا نتيجة عادلة في حق البشرية التي وصمت بعار الخطيئة والإثم، فهو نظام طبيعي مبني على الإنصاف الرباني، فالإنسان المخطئ يُعاقب على خطيئته ويُجاسَب عليها، ولن يُعْفَى عنه إلا بعد تطهير نفسه من هذا الإثم، فالإنسان سيظل معاقباً مادامت الخطيئة لازالت في المجتمعات البشرية، وسيبقى الشر والألم والمصائب وعبئ الخطيئة مُنهِكاً، كاهل البشرية وحملها، ولتتخلص البشرية من هذا العبئ كان لا بد من تحقيق العدالة الحققة وهي العدالة المسيحية، إذن فقد ربط أوغسطين العدالة بالديانة المسيحية.

¹ - مزود نسيية: فلسفة الحضارة في فكر القديس أوغسطين، (مذكرة مقدمة لنيل درجة ماجستير في فلسفة الحضارة، جامعة باتنة، 2011-2012)، ص: 73.

² - مصطفى الفوال صلاح، مرجع سابق، ص: 292.

³ - القديس أوغسطين: مدينة الله، مج3، مصدر سابق، ص: 141.

⁴ - المصدر نفسه، ص: 143.

المبحث الثالث: القانون الإلهي والقانون الوضعي:

كان من بين أسباب خطيئة الإنسان الأول التعدي على أوامر الرب وتجاوزها، وقد ورث الإنسان عن الأباء الأولين ميزة التعدي على حقوق بعضهم البعض فكان من الضروري بما كان أن ينشأ قانون ينظم الحياة بين الأفراد، ويكبح غرور كل مُعتدٍ آثم، فما هو القانون الأمثل عند القديس أوغسطين لممارسة هذا الضبط؟

أولاً: القانون الإلهي

القانون عند القديس أوغسطين نوعان هما القانون الإلهي والقانون الوضعي البشري، ففي بادئ الأمر كان " القانون الطبيعي هو أساس الحياة كلها، وهو يرجع إلى أمرين، الأول: ألا يصنع المرء بالآخرين ما لا يريدان أن يُصنع به، والثاني أن يعطي كل ذي حق حقه، وعندما عصى آدم ربه وأصبح الإنسان خاليًا من المواهب الإلهية، يميل إلى العبث بالقانون الخلقى، فوجب بالتالي تقرير القانون الوضعي وجزاءاته، تؤيده القوة لوقف العابثين عند حدهم، لأن آدم نزل عن المرتبة التي رفعه الله إليها ومعه ذريته، فلا بد من إصلاح العابثين وتوفير الطمأنينة"¹، فالمخلوقات كلها يجب أن تخضع للقانون الذي يحقق النظام والانسجام الذي سنه الله في خلقه، فالله خلق الكون وسيره بصورة حكيمة فهو منبع كل قانون يسري على الكون ويحركه ويضبطه، والله هو الأمر والنهي وعلينا اتباع قانون الله فهو " الأكثر عدلا والأوجب احتراماً"².

القانون الإلهي قانون أبدي، صادر عن الله، فهو إذن قانون أزلي ثابت لا يتغير عبر الزمان ولا المكان لأن الله أزلي ثابتة.

وللقانون الطبيعي صفات تتمثل أساسا في " الوجوب و الالتزام فيه: انه أمر لا يترك مجالاً للاختبار، فالله يدبر العالم بشكل مطلق وتام، ومشيتته هي القاعدة لكل المشيئات البشرية التي عليها أن تفعل الخير لا أن تقف ضد إرادة الله، ذلك الوقوف ثورة وظلم، لا مجرد خطأ و سهو، القانون تعبير عن إرادة الله، وإرادته وعقله شيء واحد والقانون خير في حد ذاته (...). والصفة الثانية في القانون الطبيعي هو أنه مرغوب وقادر على أن يثير الإنسان ويحركه"³ لأنه القانون الأمثل للإنسان، إذ يتناسب مع طبيعته لأنه شامل، فالحياة

¹ - حافظ أشرف، مرجع سابق، ص: 64.

² - مصطفى الفوال صلاح، مرجع سابق، ص: 192.

³ - زيغور علي: الفلسفة في أوروبا الوسيطة وعصري النهضة والاصلاح، مرجع سابق، ص: 180.

الاجتماعية لا بد وأن تخضع للقانون الطبيعي فهو أساسها، لأنه قانون صادر عن عدالة الله، فالله لطيف بعباده، رحيم بهم، وبالتالي فما يصدر عن الله كله خير، وقانون الله خير بالضرورة، ولأنه خير فإنه مؤسس على "قضيتين ضروريتين: الواحدة ألا يصنع المرء بالأخرين ما لا يريد أن يُصنع به، والأخرى أن يعطي كل ذي حق حقه"¹.

فكلا القضيتين لهما مسعى خير، فالقانون الإلهي بهذا يهدف إلى الحفاظ على حقوق الناس فيما بينهم، فكف الفرد عن التعدي على غيره يدعو إلى كف الغير عن التعدي عليه هو الآخر، أما الأساس الثاني فإنه باحترامه لحقوق غيره وعدم سلبهم إياها، فإنه سيحفظ حقوقه بذلك إذ لن يتعدى عليها أحد.

لكن رغم أن الله قد أنعم على الإنسان بهذا القانون العادل الذي يحافظ على حياته إلا أنه فرط فيه بمعصيته لربه، فبعد أن ارتكب الإنسان الخطيئة الأولى بمعصية أوامر الله فقد تمرد على القانون الإلهي، فورث الإنسان هذا، وأصبح الإنسان حرًا يفعل ما يشاء بدون ضوابط تحكمه وتُسدِّدُه، فسَادَ الخوف وزالت الطمأنينة التي كانت سائدة في ظل وجود القانون الطبيعي، وابتعاد الإنسان عنه أصبح من الضروري وجود قانون آخر يحكمهم، لهذا سنّ الإنسان قانونا دنيوي هو القانون الوضعي، وبهذا فإن الخطيئة اقتضت وجود السلطة الزمنية.

ثانيا: القانون الوضعي

رأى القديس أوغسطين أن القانون الوضعي هو القانون الذي سيضبط أفراد المجتمع في الدولة ويحد من شروا الطبيعة الإنسانية، ويحمي النظام وحقوق الناس ويوفر لهم الطمأنينة والاستقرار و " هذه المهمة هي التي (...). تجعلنا نقرر السلطة الدنيوية، وتقبل القوة حفاظا على الحق والنظام"²، فهذا القانون كان ضروريا لردع المعتدين، وهو نتيجة محتمة وضرورية بسبب خطيئة الإنسان وبهذا " فقساوة الأب ووجود الجندي و السلاح ونظام السيد على عبده (...). كلها أمور ضرورية من أجل منع المارقين، والأشرار واستتباب السلم"³.

¹ - كرم يوسف، مرجع سابق، ص: 48.

² - زروخي اسماعيل، مرجع سابق، ص: 171.

³ - زيغور علي: الفلسفة في أوروبا الوسيطية وعصري النهضة والإصلاح، مرجع سابق، ص: 180.

والقانون الوضعي قانون مهم، على الإنسان طاعته كي يسود السلام والاستقرار بين الناس داخل المجتمع، لكن رغم أهمية هذا القانون إلا أنه محدود، فهو في حد ذاته صادر عن القانون الإلهي هذا القانون الشامل، حيث " يصدر القانون الزمني عن القانون الطبيعي الأبدي، ويجب بالتالي أن يهدف إلى سيطرة العدالة، لا إلى خدمة الحاكم وتأييد الظلم والقوة (...). لذلك علينا إطاعته (...). وعليه هو أيضا أن يكتفي بتأمين الهدف المجتمعي والسياسي لا أن يتناول أموراً يجب أن يحاسب الله عليها"¹.

فما على القانون الوضعي أن يتناول إلا الأفعال الظاهرة، فما وأن تُترك المعاقبة التي لا يقدر عليها النظام الوضعي لله، فقانون الله أشمل وأعم من القانون الوضعي.

وفي النهاية فإن القانون في هذا العالم اثنان احدهما مرتبط بالمدينة السماوية وهو القانون الإلهي أو الطبيعي الأبدي الأزلي، والثاني هو القانون الوضعي الدنيوي، ولّى عهد أحدهما بمعصية آدم لربه وهو القانون الطبيعي ليسود محله القانون الزمني.

هذا القانون الذي جاء لضبط الإنسان الموسوم بالإثم، الذي ورث التمرد والسيطرة، ليحد من فساد، لكن رغم هذا إلا ان العدالة الحقة لن تصدر إلا عن القانون الأمثل وهو القانون الصادر عن الله، أي القانون الطبيعي.

¹ - زيغور علي: الفلسفة في أوروبا الوسيطة وعصري النهضة والإصلاح، مرجع سابق، ص: 181.

خلاصة الفصل:

وفي الأخير وفي نهاية هذا الفصل فإننا نكتشف أن فكر أوغسطين السياسي ارتبط بصورة مباشرة بفكره اللاهوتي، إذ يرى أن الإنسان يجب عليه أن يهدف إلى الحياة السعيدة الدائمة ويطمح لها، فهي الحياة الحقيقية التي تتمثل في وحدته مع ربه، فيمنحه الله هذه الحياة التي لا يستطيع أحد غيره أن يهبه إياها، ولكن لبلوغها، على الإنسان أن يحيا الحياة الدنيوية محبا لربه وأن يتعد عن كل الشهوات والنزوات التي توقعه في المعصية، ويحي إنسانا مؤمنا متدينا يسعى إلى الحياة الآخرة لا إلى الحياة الدنيوية الزائلة، فالارتباط بالله يكون بالتدين، إذ اعتقد أوغسطين دائما أن المسيحية هي المخلص للبشرية، وهي الديانة الأنجع و الأمثل، فالإنسان بارتباطه بالمسيحية والكنيسة يمكن أن ينهي عنه تلك الآلام التي خلفتها خطيئة الآباء الأولين آدم وحواء ويسمو إلى حياة أفضل ينعم فيها بالسعادة الدائمة إذ أن المسيحية تدعو إلى الابتعاد عن اتباع المادة والأهواء والنفس لأنها تؤدي إلى الشرور، وعلى هذا فعلى الإنسان أن يعيش زاهدا عن كل ما هو مفسد وآثم، وهذا ما جعل أوغسطين يُصرُّ على أن تكون الدولة والعدالة مسيحية، وحتى القانون أن يكون قانوناً ربايئياً كي تعم الطمأنينة ويسود السلام الدائم، هكذا إذن قد ربط أوغسطين فكره السياسي بالديانة المسيحية.

الفصل الثالث

الخطيئة والتاريخ

تمهيد

المبحث الأول: مُقَدِّمَةُ التاريخ عند القديس أوغسطين

المبحث الثاني: حركة التاريخ

المبحث الثالث: نهاية التاريخ

خلاصة الفصل

تمهيد:

يعتبر القديس أوغسطين من بين أهم الفلاسفة الذين نظروا لفلسفة التاريخ، إذ حاول جاهدا رسم مسار للتاريخ انطلاقا من فكره الفلسفي، واللاهوتي بالخصوص، إذ يمكن أن نعتبر أن التاريخ عند أوغسطين كان مجموعة من الاحداث التي رسمها الله وخطط لها وتحكم فيها، وهذا ما اتضح للقديس أوغسطين من خلال قراءته للكتاب المقدس، وتأويله للأحداث التي ذكرها الله في الإنجيل من أول الخلق بدأ بمحادثة خلق آدم ثم سقوطه، فسقوط ذريته بعد ذلك إلى آخر التاريخ، هذا التاريخ الذي شغل فكر القديس أوغسطين.

فكيف أرخ القديس أوغسطين لأحداث التاريخ؟

المبحث الأول: مُقَدِّمَةُ التاريخ عند القديس أوغسطين

حاول القديس أوغسطين خلال تدوينه لتاريخ الأحداث أن يرسم بدقة الوقائع التي شهدها العالم منذ البداية حتى النهاية، ولكي يلم بمسار التاريخ ككل كان عليه التركيز أولاً على أهم حقب التاريخ والتي تتمثل أساساً في الحقبة الأولى منه، أي بدايته، لأن معرفة أحداث البداية وملامسة الحقيقة فيها سيؤدي بالضرورة إلى تحصيل حقائق أهم الأحداث التي تلتها بعد ذلك، أي أنه لا يمكن أن نفهم أحداث التاريخ في مسارها إلا بعد الإلمام ببداية التاريخ وما وقع فيها من أحداث.

- فكيف كانت بداية التاريخ عند أوغسطين؟

قبل التطرق إلى بداية التاريخ عند أوغسطين كان جدير بنا أن نطرق باباً آخر قبل ذلك هو المنهج الذي اتبعه أوغسطين في تدوينه للتاريخ، والذي تمثل أساساً في منهج التأويل، فللكي يُلم أوغسطين بأحداث التاريخ ويدرسها ويفسرها كان لا بد عليه من الاعتماد على الكتاب المقدس بالدرجة الأولى، وبما أن الإنجيل كلام مقدس، فلزام عليه أن يرجع إلى التأويل.

أولاً: منهج أوغسطين في التاريخ للأحداث (التأويل)

التأويل منهجٌ مهم لا بد منه في فكر أوغسطين باعتباره مؤرِّخٌ يحتكم إلى النص المقدس الذي يحتوي على معنيين، معنى ظاهري ومعنى باطني¹ فالباطن هو المعاني الخفية التي لا تتجلى إلا لأهل البرهان¹ فالتأويل إذا الطريقة المؤدية إلى فهم ما وراء الكلام الذي سكت عنه النص المقدس، فهو مهم ولا بد منه، في التأريخ للأحداث عبر الزمان " فأوغسطين قد نجح في تحقيق مزيد من المكاسب بمنهج التأويل، هذا الذي أخذه عن أساتذته أمبرواز*، فلم يعد هدفه تبرير النسخ في الكتاب المقدس فحسب، بل رنا إلى ما هو أجدى وأسمى، ونعني به تفسير كل تاريخ البشرية²، فأحداث الماضي تحتاج لتأويل من قبل المؤرخ لتكشف له عن

¹ - صليبا جميل، مرجع سابق، ص: 234.

*- أمبرواز: هو اسقف ميلانو، ولد بين 333 و340 م في تريفن، ومات في 17 كانون الثاني 395م، نشأ في أسرة نصرانية شديدة الورع، قبل المعمودية عام 374 عندما اختاره الميلانيون أسقفا عليهم، من مؤلفاته " في واجبات رجال الدين". أنظر: جورج طرابيشي، مرجع سابق، ص: 94-93.

² - الخضيرى زينب محمود، مرجع سابق، ص: 63.

الحقيقة الكلية التي تستتر وراءها، وما هذه الحقيقة الكلية إلا حقيقة تاريخ البشرية منذ الخلق حتى اليوم، ويمكن أن نقول حتى الأبد.

هذه الحقيقة التي يمكن ان يستنبطها من الحقيقة الخفية الكامنة وراء غموض الكتاب المقدس، الذي حاول دون تحديد المعنى الذي يشير إليه هذا الكتاب، لهذا كان اهتمام أوغسطين شديدا بالمعنى الخفي " إلا ان المعنى الحرفي أو اللغوي للنص المقدس لم يكن بأقل أهمية عنده (...). ولقد انطلق أوغسطين دائما في تأويلاته من فكرة أن المعنى الحرفي هو الأساس القوي لكل تفسير مجازي، وبالفعل نلاحظ أنه خصص جزءا كبيرا من أعماله التفسيرية لدراسة المعنى الحرفي أو اللغوي لمختلف أجزاء الكتاب المقدس".¹

لقد كان التأويل عند أوغسطين مزيجا بين التفسير الحرفي اللغوي والتأويل الرمزي، هذا المزيج جعله ينجح في التأريخ للحوادث وبدقة، مما جعله يبين الخطة الإلهي لهذا التاريخ وهدف الله من ذلك.

وبهذا إذن قد حاول أوغسطين أن يكتب للتاريخ منذ بدايته حتى نهايته، ولندرس أحداث هذا التاريخ ومسارها كان جدير بنا أن نبدأ بدراسة أول التاريخ أو مقدمة التاريخ أي كيف كانت بداية التاريخ من منظور أوغسطين.

ثانيا: بداية التاريخ ببداية تشكل المدينتين

بعد تأويل أوغسطين للكتاب المقدس وما جاء فيه من أحداث كانت كانطلاقة للتاريخ، فإن هذه الانطلاقة في منظور أوغسطين قد تحققت مع بداية الخلق أي الأيام الستة الأولى من خلق السماء والأرض والكواكب وغيره وصولا إلى خلق آدم، أي أن أول ما ابتداء به الله من عمل الخلق، هو أول حركة كانت في التاريخ المفارق وبعد عملية الخلق انعم الله على سيدنا آدم بالفردوس " إذ كان الإنسان يعيش في الفردوس (...). كان يعيش متمتعا بالله"²، لكن خطيئته والتي كانت أعظم حدث شهدته التاريخ حالت دون بقاء الإنسان في العالم السماوي، فأنزله الله إلى الأرض لتظهر بهذا مدينة مخالفة للأولى وهي مدينة الأرض بسبب الخطيئة التي دفع إليها الكبرياء وتبذد حب الله في قلب آدم مثل ما تبذد من قبل في قلب الملائمة الأشرار بعد أن كانوا خيرين في أصلهم، فبالحسد والكبرياء تغير العالم ليبتدأ بالانقسام.

¹ - الخضير زينب محمود، مرجع سابق، ص ص: 76-77.

² - القديس أوغسطين: مدينة الله، مج2، مصدر سابق، ص: 207.

وهكذا كانت الخطيئة الأولى أساس بداية تشكل المدينتين " فالبدأ كان بآدم " ¹ ومعصيته التي كان أساسها تحول حب الله غي قلب الإنسان الأول، فكان الحب بهذا الشكل أساس بناء المدينتين، يقول أوغسطين: " حبان بنيا مدينتين: حب الذات، إلى حد احتقار الله، بنى المدينة الأرضية، وحب الله، إلى حد احتقار الذات، بنى المدينة السماوية، الواحدة تفاخر بنفسها، والثانية بالرب تفاخر " ².

فالحب نوعان، حب الله وبه يسير الإنسان على الطريق الصواب مع الله، وحب آخر هو حب الذات وبه يسير الإنسان على حسب ميولاته وشهواته، من شهوة المال، وشهوة النساء والسلطة وغيره من ملذات الحياة.

فإذا ما تحدثنا عن حب الله فإن هذا الحب كان مغروسا في قلوب الملائكة القديسين، فكانوا هم أول سكان مدينة الله هذه المدينة اللامرئية والتي ستظل كذلك إلى نهاية التاريخ، وقد كان للبشر هم الآخرون دور في بناء هذه المدينة رغم خطيئة الإنسان الأول، فإن الله قد منح آدم وُلدان كان أحدهما صالحًا وهو هاويل ثاني أبناء آدم " هاويل ابن مدينة الله " ³ الذي أسس هذه المدينة " فبعد الملائكة قام هاويل بتأسيس المدينة السماوية كإسقاط للمفهوم من الجانب المثالي إلى الواقعي، أي تم إنزال مدينة الله من السماء إلى الأرض حتى لا تبقى محصورة في الملائكة أو في آدم وحواء المثاليين (...). وان يؤسس هاويل مدينة الله لا يعني ان يضع لها حدودا أو أسوارًا، وإنما بولادته ولد مواطن مدينة الله الذي كان منذ نشأته سائحًا على وجه الأرض ولم يبي شيئا لأن مدينة القديسين في السماء " ⁴.

وتتمثل مدينة الله في الأرض في مدينة أورشليم إذ " يسمى الكتاب أورشليم مدينة الله، ويعلن عن ان بيت الله سيرتفع في حصنها " ⁵، لكن سكان مدينة الله لا ينتمون فقط إلى أورشليم بل يتوزعون على كل العالم.

¹ - زيغور علي: الفلسفة في أوروبا الوسيطية وعصري النهضة والاصلاح، مرجع سابق، ص: 189.

² - هنري - ايرنيه ماتو، مرجع سابق، ص: 107.

³ - القديس أوغسطين: مدينة الله، مج2، مصدر سابق، ص: 216.

⁴ - مزواد نسييه، مرجع سابق، ص: 38.

⁵ - المصدر السابق، ص: 262.

بما أن بناء مدينة الله كان على يد هايبيل فإن مدينة الأرض لابد وان يكون لها هي الأخرى مؤسس فإذا ما نظرنا إلى هذا فإننا سنجد أن مدينة الأرض كانت على العكس من مدينة الله، فهي قد تأسست بسبب تبتد حب الله في قلوب مخلوقاته سواء كانوا من الملائكة أو بنو الإنسان، أما بالنسبة للملائكة فإن "مدينة المؤمنين والمدينة الآتمة، واقفة كل منهما على الملائكة الذين ترتبط بهم، منهم من عرفوا منذ البداية بحبة الله، ومنهم من عرفوا بحبة ذواتهم"¹، وما كان هذا إلا بسبب الكبرياء والحسد، ونفس الخطأ قد وُصِمَ به الإنسان، فبسبب إغواء الحية لآدم بأنه سيصبح إله يأكله من ثمار شجرة وسط الجنة تحول حب الله في قلبه إلى حب التآله، فأصبح الإنسان بذلك مقيدا برغبات جسده ليصبح مواطن مدينة الأرض.

وبعد إبليس وخطيئة آدم، فإن هناك مؤسس آخر لها، وهو قايين الابن الأول لآدم وهو: "قاتل أخيه، لقد وقع ضحية الحسد، فقتل أخاه مواطن المدينة السماوية المسافر فوق هذه الأرض"²، إذ كان حسده لأخيه يفوق الحد، لأن كل همهم كان تلك الرغبة في التسلط والمجد، بالرغم من أن هايبيل لم يكن منافسا له على ذلك، فقد كان محبا لربه أكثر، هذا ما جعل الله يقبل قربانه حين طلب قربانا، ورفض قربان الآخر، لأن القربان الأول كان أكثر سخاء، فالكتاب يقول: "وكان هايبيل راعيا للغنم، وكان قايين عاملا في الأرض وحدث من بعد أيام أن قايين قدم من أثمار الأرض قربانا للرب، وقدم هايبيل أيضا من ابيكار غنمه ومن سماخا فنظر الرب إلى هايبيل وقربانه، ولكن إلى قايين وقربانه لم ينظر"³.

وبهذا امتلأ قلب قايين بالغيظ ليمتلى حقدًا " وحدث إذ كانا في الحقل أن قايين قام على هايبيل أخيه وقتله"⁴، وبهذه الدماء الطاهرة كانت ولادة الصراع، والعنف، ليكون ذلك إعلانا عن بناء مدينة الشر والظلم.

¹ - القديس أوغسطين: مدينة الله، مج2، مصدر سابق، ص: 187.

² - المصدر نفسه، ص: 221.

³ - الكتاب المقدس: سفر التكوين، الإصحاح: 4/2-5.

⁴ - الكتاب المقدس: سفر التكوين، الإصحاح: 4/8-9.

وبهذا تأسست مدينتي الأرض والله على يد وَلَدَيْ آدَمَ ، فهابيل كان ممثل المدينة السماوية وقاين كان مؤسس المدينة الأرضية، كان هذا نتيجة الصراع بين الأخوين ليستمر بعد ذلك الصراع طوال مسار التاريخ بسبب الحسد، فيظهر لنا بعد ذلك صراعات أخرى كصراع " رومولوس وريموس، ثم بعد ذلك صراع اسماعيل مع أخيه اسحاق، فالنقطة الجامعة التي توحد بين هؤلاء الثلاث أنواع من البشر والتي يجدها الكتاب في أساس انقسام المدينتين هي الحسد".¹

وهكذا وفي الأخير فالحسد كان سببا بارزا في تشكل مدينة الأرض، ففي بداية الخلق، كانت مدينة الله لوحدها، يعيش فيها الإنسان وغيره من المخلوقات سعداء أبدا، لكن الشيطان بسبب خطيئته أُخرج منها فكان منذ ذلك الحين عدوا لله مما جعله يغوي الإنسان الأول فيسقطه هو الآخر في خطيئة العصيان، إذ عصى آدم ربه، فأسقطه الله إلى الأرض، وقد ورث أبناء آدم هذه الخطيئة الأصلية ليخطئ بعد ذلك ابنه قايين الذي غار من أخيه هابيل ممثل المدينة السماوية، وبسبب حسده له قتله ليكون هذا الحدث بداية تشكل مدينة الأرض مع قايين، وهكذا باختصار كانت بداية التاريخ في فكر القديس أوغسطين.

¹ - القديس أوغسطين: مدينة الله، مج2، مصدر سابق، ص: 213.

المبحث الثاني: حركة التاريخ

لكل انطلاقة مسار، وبما أن الله قد خلق العالم وخلق الإنسان الأول ورسم لمجموعة من الأحداث كانت في أول التاريخ، وكانت كبداية له بتشكيل المدينتين مع وُلدي آدم، هايبيل مؤسس مدينة الله، وقاين باني مدينة الأرض، فلا بد أن يكون لهذه البداية حركة، ولهتين المدينتين تطور عبر الزمن.

- فكيف تطورت المدينتين؟ وكيف كان مسارها عبر التاريخ؟

قبل أن نتحدث عن حركة التاريخ ومساره لابد لنا من الإشارة إلى أساس حركة هذا التاريخ والتي تتمثل في العناية الإلهية .

أولاً: العناية الإلهية في التاريخ

خلق الله هذا الكون ليتولى بعد ذلك تدبير أموره ورعايته، فهو لم يخلق الأشياء ليتركها ويتخلى عنها بل على العكس من ذلك تماماً، فالله قد خلق ونظم ورتب ووجه كل ما في الكون، ولا يوجد شيء خارج سيطرته، فلا مجال للصدفة في هذا العالم، ولا شيء يخرج عن إرادة الله " فالموجودات لا تدوم ولا تبقى إلا بإرادة الله الذي خلقها، وهي تعتمد عليه في سلوكها كما تعتمد عليه في وجودها سواء بسواء".¹

يقول أوغسطين: " ألقيت نظرة إلى ما بقي من الأشياء فأدركت أنها تدين لك بالوجود وان كل كائن يجد حده فيك بصورة خاصة بل لأنك تضبط الكل في حقيقتك كما في يدك"²، وبهذا فإن الله الخالق لهذا الوجود هو أيضاً الماسك له تحت عنايته " فحسب أوغسطين إن التغيير الجذري في الموجودات وحدثها يكشف بوضوح عن خضوع هذه الموجودات للعناية الإلهية"³، فما هذه الحياة إلا سلسلة من الأحداث التي عنى الله بها وسرت على ضوء خطته إذ " تشير نظرية العناية الإلهية إلى أن التاريخ مسرحية ألفها الله ويمثلها الإنسان، أي أن وقائع التاريخ تخضع للمشيئة الإلهية، بل هي التي شكلتها على نحو ما هي عليه، تنكر هذه النظرية القول بالمصادفة لأنها لا تعني إلا الفوضى أو العبث، والإيمان بالعناية الإلهية في التاريخ يقتضي إيماناً

¹ - جلسون اتين، مرجع سابق، ص: 209.

² - القديس أوغسطين: الاعترافات، مصدر سابق، ص: 136-137.

³ - المرجع السابق، ص: 210.

بالله¹ الذي جعل للتاريخ منذ بدايته إلى ما ستكون له من نهاية مسارًا مخططًا بحكمته منذ أول الخلق إلى نهاية العالم.

ثانياً: مسار حركة التاريخ

يصور لنا القديس أوغسطين هذه الحركة للمسار راسماً التاريخ في سلسلة ذات خط مستقيم منتهي إذ بدأ التاريخ عنده من خلق الله لآدم فيستمر بعد ذلك بمجموعة من الأحداث المختلفة عبر الأجيال التي جاءت متعاقبة ابناً عن أب من آدم إلى آخر التاريخ ونهايته مع ظهور اليسوع من جديد، ويمكن أن نوضح ذلك في مجموعة من المراحل بالرسم التخطيطي التالي:



بهذا المخطط يمكن أن يتبين لنا أن التاريخ عند أوغسطين كان على شكل خط مستقيم منتهي² وقد أبى أوغسطين قبول نظريات الدورات المتكررة في التاريخ وذلك لأنه من ناحية اعتبر أن التجسد يحدث مرة واحدة لا تتكرر²، فالتاريخ عبارة عن مجموعة مراحل متتالية ومنتهية، صنفها أوغسطين على أنها " من آدم

¹ - أحمد محمود صبحي: في فلسفة التاريخ، (دار المعرفة الجامعية، مصر، دط، 1997)، ص: 147.

² - محمد عويضة كامل محمد، مرجع سابق، ص: 94.

إلى نوح تمثل مرحلة الطفولة في مهدها الأول (...). ومن نوح إلى ابراهيم مرحلة الصبا، ثم مرحلة الشباب التي تمتد من ابراهيم إلى داوود، زمن داوود إلى الاسر البابلي لليهود مرحلة الرجولة، من الاسر البابلي (...) إلى الحياء الثاني (...) يمثل مرحلة الشيخوخة¹، لينتهي بذلك التاريخ ويتوقف، لا كما اعتقد بعض الفلاسفة من قبله والمؤرخين الذين قالوا بالتعاقب الدوري وان المسار التاريخي دائري، أو غسطين يرفض عذا ويرى أن الواقعة التاريخية فردية تحدث مرة واحدة في التاريخ ومن الاستحالة تكرارها، ويعتبر أن " أصحاب هذه النظرية في ضلال حين يعتبرون الدائرة أكمل الأشكال ويتخذومونها في التاريخ بدلا من الخط المستقيم، أنهم يقيسون بعقولهم الضيقة أحكام العقل الإلهي"²، فلا بد للتاريخ ان يفسر حسب ما جاء به في الكتاب المقدس من آدم إلى يوم الحساب خطأ مستقيما يبدأ من آدم وحواء " وعرف آدم حواء امرأته فحبلت وولدت قايين، وقالت: «اقتنيت رجلا من عند الرب» ثم عادت فولدت أخاه هايل، وكان هايل راعيا للغنم وكان قايين عاملا في الأرض"³، فبداية المدينة كانت مع آدم و أولاده هايل وقايين، لكن لم يدم هذا طويلا إذ قتل قايين أخاه هايل بسبب الحسد لتبدأ مع ذلك مدينة الأرض بالظلم والعنف والفساد" فقال الرب لقايين: «أين هايل أخوك؟» فقال: «لا أعلم! أحارس أنا لأخي؟» فقال: « ماذا فعلت؟ صوت دم أخيك صارخ إلي من الأرض، فالآن ملعون أنت من الأرض التي فتحت فاهها لتقبل دم أخيك من يدك. متى عملت الأرض لا تعود تُعطيك قوتها. تائها وهاربا تكون في الأرض»⁴، هكذا تشكلت مدينة الأرض مع قارين قاتل أخيه هايل، واستمر نسل قايين ليستمز بذلك العنف الذي ميز مدينة الأرض.

فولدا آدم هما مميزا المدينتين، مدينة الله ومدينة الأرض، فقايين خالف أوامر الله ليمثل مدينة الأرض والآخر سار مع الله ليمثل مدينة السماء، وبعد موت هايل خلف الله على آدم بولد اسمه "شيت" ليمثل مكان هايل مدينة الله " وعرف آدم امرأته أيضا، فولدت ابنا ودعت اسمه شيثا، قائلتا: « لأن الله قد وضع لي نسلا آخر عوضا عن هايل» لأن قايين كان قد قتله"⁵.

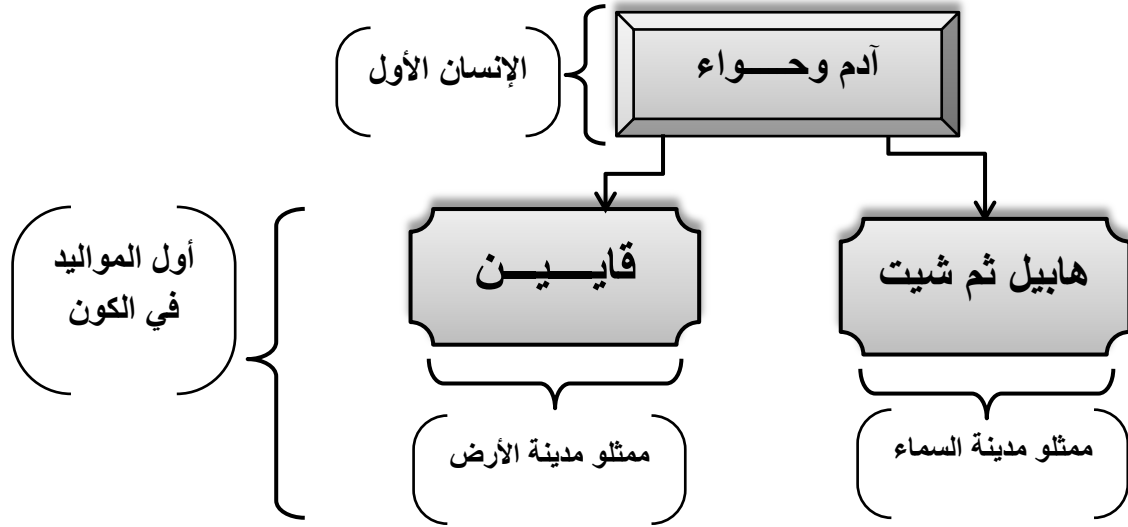
¹ - بيير سمالي: المؤرخون في العصور الوسطى، تر: قاسم عبده قاسم، (دار المعارف، القاهرة، ط2، 1984)، ص: 39.

² - محمد ابراهيم تركي، مرجع سابق، ص: 214.

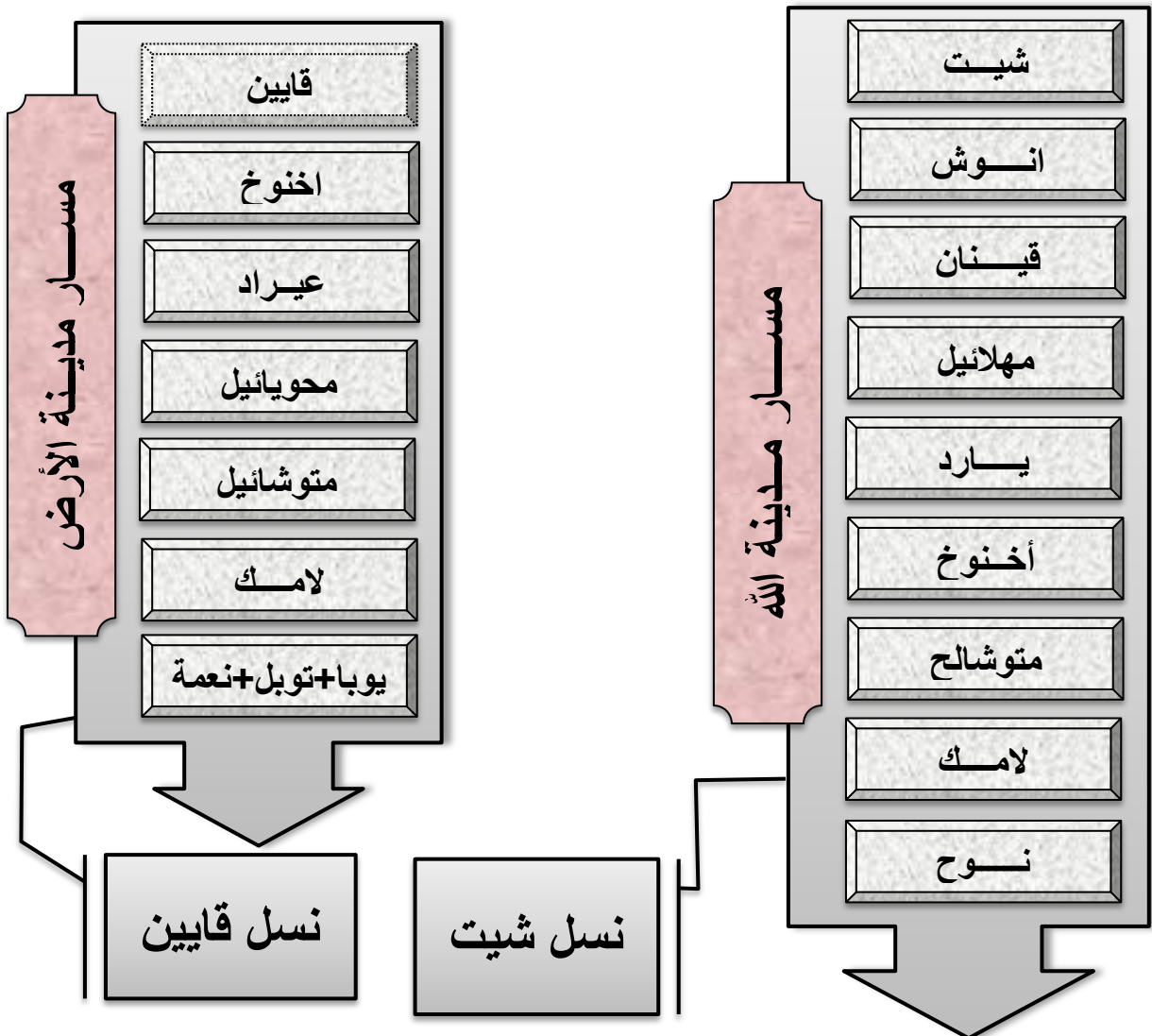
³ - الكتاب المقدس: سفر التكوين، الإصحاح: 1/4-3.

⁴ - الكتاب المقدس: سفر التكوين، الإصحاح: 9/4-13.

⁵ - الكتاب المقدس: سفر التكوين، الإصحاح: 25/4-26.



- بعد هذا ولد الاخوان قايين وشيث، وتكاثر النسل ليتضح مسار المدينتين بنسليهما.



بهذا كان لدينا نسلين عبر الزمن، مثلاً مساري المدينتين، فمن قايين و من جاء بعده من أولاده كأخنوخ وعيراد وغيرهم مثلوا مسيرة مدينة الأرض، التي تمتاز بالظلم والشر والصراع الذي وُثِر عن أبيهم قايين، أما من شيت حتى نوح هذا النسل كان مع الله محبا لله، ممثلين بذلك مدينة الله، لكن في عهد نوح بدأوا بالميل إلى الفساد مبتعدين بذلك عن الله، فساد الفساد، وكادت مدينة الله تنتهي، فعاقب الله الأشرار بتسليط طوفان عليهم قضى على كل ما على الأرض عدا نوحاً واسرته " نوح ذلك الذي قبل من الله أمراً بوجود بناء سفينة يلجأ إليها هو وزوجته وأبناؤه وكناته (...). لينجو من كارثة الطوفان"¹، وبهذا لم يبقى من الاخيار إلا نوحاً وزوجته وأبناؤه الثلاث وزوجاتهم الثلاث، فانتهى بذلك سكان مدينة الأرض ليبقى فقط سكان مدينة الله الذين تمثلوا في نوح وابنائهم، وبعد أن نجى نوح من الطوفان سيستمر النسل بأبناء نوح " وكان بنو نوح الذين خرجوا من الفلك سائماً وحاماً وبافث، وحام هو أبو كنعان، هؤلاء الثلاثة هم بنو نوح، ومن هؤلاء تشعبت كل الأرض"².

شبه هنا أوغسطين السفينة التي وهبها الرب لنوح كي تنقذه من هول ما حدث بالكنيسة حيث يقول: "أليست تلك السفينة، التي سوف يخلص فيها، صورة واضحة لمدينة الله المسافرة في هذا العالم أو للكنيسة المفتداة بالخشبة التي عُلق عليها الوسيط بين الله والناس، يسوع المسيح الإنسان؟"³. وبهذا يتضح لنا المسار منذ البداية عبر أجيال متعاقبة بعضها من مدينة الله والآخر من مدينة الأرض، ورغم أن المدينة يشكلها عدد من الأشخاص، إلا أن الكتاب المقدس خلال ذكره للأجيال المتعاقبة لم يذكر كل الأشخاص أو بالأحرى كل الأبناء، فهناك من لم يذكروا "فالكتاب المقدس لم يكن مضطر إلى ذكر جميع الناس الموجودين آنذاك بل هؤلاء الذين يهمهم ذكرهم في موضوعه، لأن غاية الكتاب الملهم النزول من خلال عدة أجيال متعاقبة متحدة من انسان واحد واصلا إلى ابراهيم، ومن ابراهيم حتى شعب الله المميز عن سائر الشعوب"⁴، وهم بنو اسرائيل الذين ظهر فيهم اليسوع عيسى.

وللوصول إلى ابراهيم ثم إلى شعب الله المختار، وبعد ذلك إلى عيسى، لا بد لنا من تتبع المسار التاريخي لنسل سام، لأنه من هذا النسل يظهر المسيح، فسام مبارك لأن "نوحاً، وقد منحه الله علماً أصيلاً

¹ - القديس أوغسطين: مدينة الله، مج2، مصدر سابق، ص: 272.

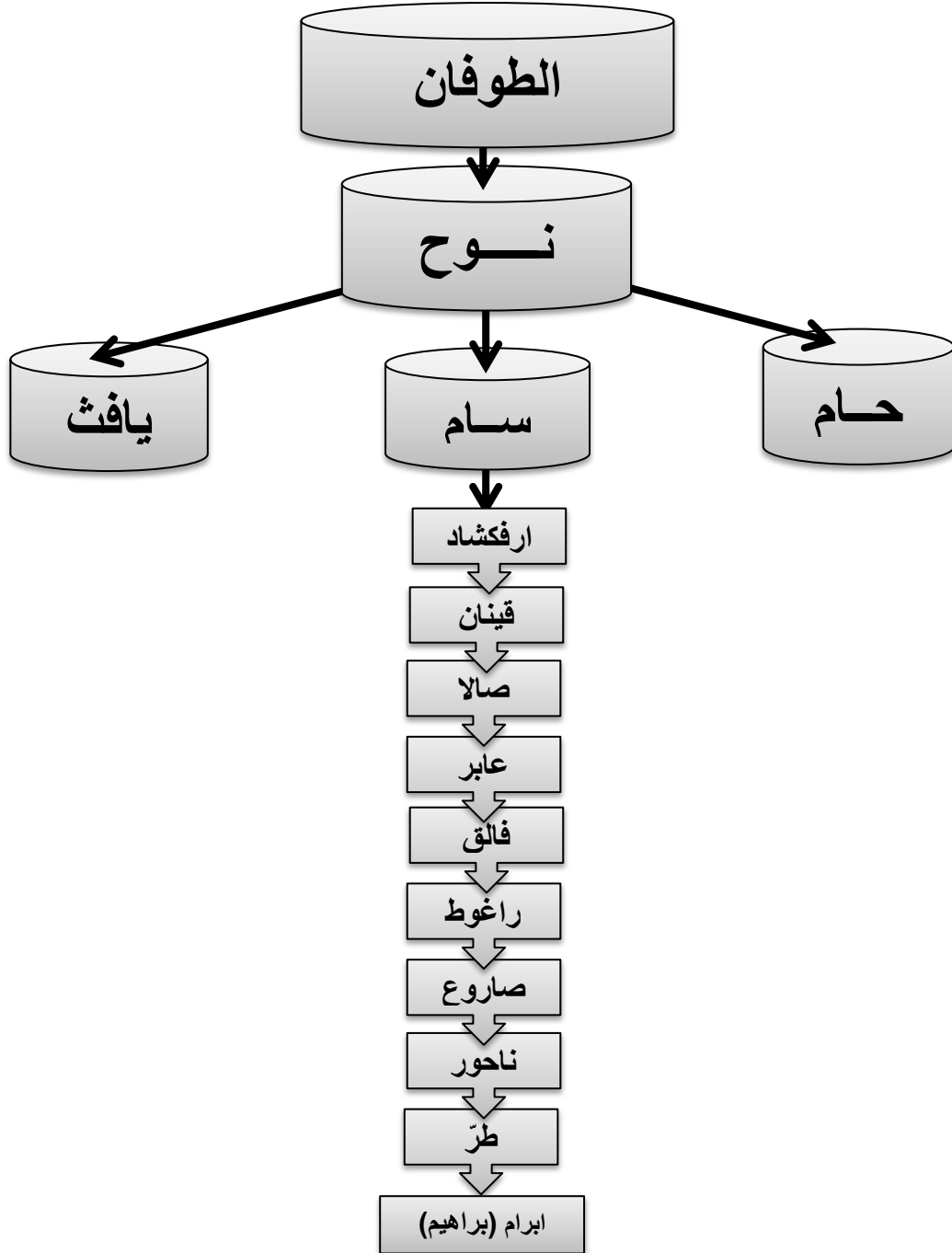
² - الكتاب المقدس: سفر التكوين، الإصحاح: 9-18-19.

³ - المصدر السابق، ص: 272.

⁴ - المصدر نفسه، ص: 229-230.

بالمستقبل، فقد بارك ابنه سام ويافث بركة نبوية¹، وقال: "مبارك الرب إله سام، وليكن كنعان عبداً لهم ليفتح الله لياث فيسكن في مساكن سام، وليكن كنعان عبداً لهم"².

- ويمكن أن نتبع المسار مع نوح وابنه سام كالتالي:



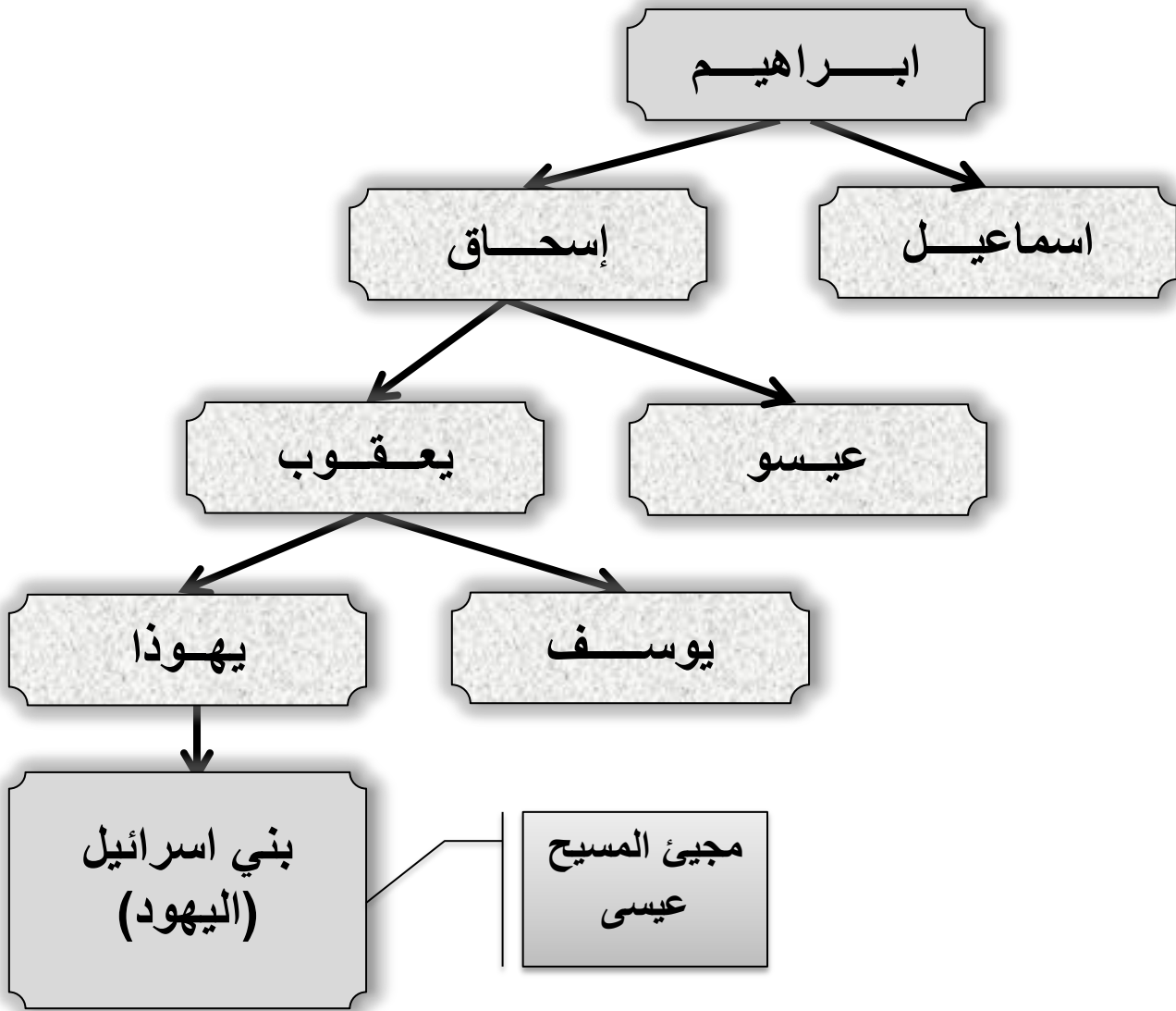
¹- القديس أوغسطين: مدينة الله، مج2، مصدر سابق، ص: 281.

²- الكتاب المقدس: سفر التكوين، الإصحاح: 9/26-27.

" ابرام الذي غير الله اسمه ودعاه ابراهيم".¹

وهنا في زمن ابراهيم بدأت آثار المدينة المقدسة تتضح إذ " ينقسم تاريخ المدينتين إلى وقتين، يفصل بينهما ظهور المسيح: فمن قايين إلى ابراهيم كانتا مختلطتين، ولما جاء ابراهيم أبو المؤمنين بدأنا تتمايزان سياسيا: المدينة السماوية يمثلها بنو اسرائيل، والمدينة الأرضية تشمل باقي الإنسانية".²

ثم من ابراهيم، جاء اسحاق، وهذا الأخير أنجب عيسو ويعقوب، ومن بين أبناء يعقوب - الذي سماه الرب اسرائيل - يوسف، ولاوي وبنيامين..... ويهوذا، هذا الأخير الذي تنحدر منه سلالة اليهود، ليخرج فيهم المسيح عيسى، فمنهم من آمن بالمسيح ومنهم من رفضه.



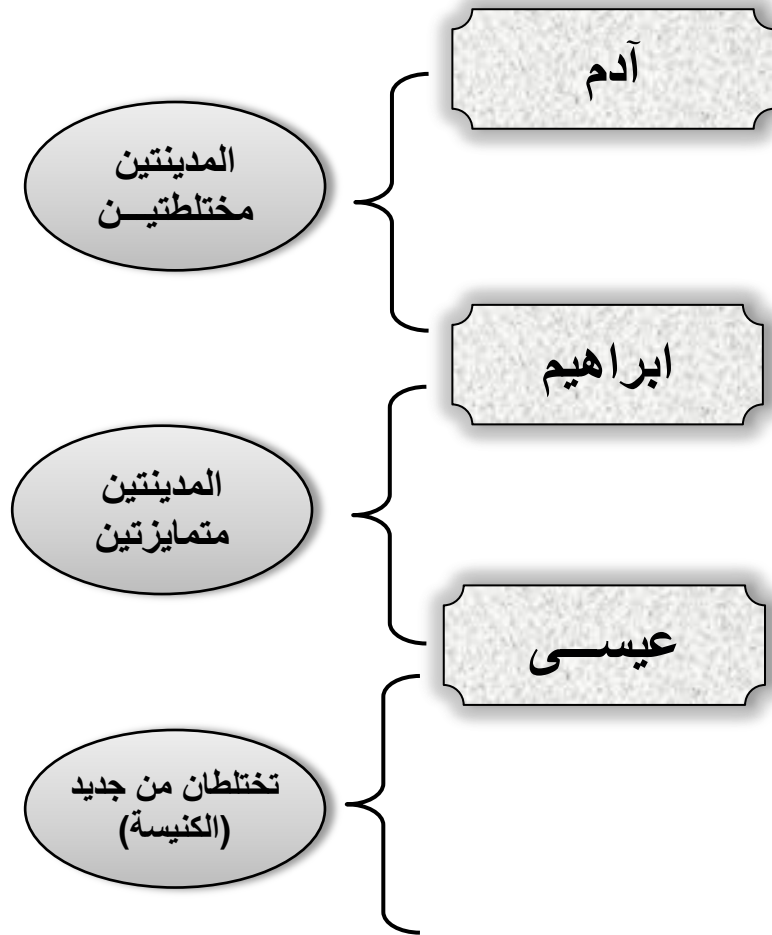
¹ - القديس أوغسطين: مدينة الله، مج2، مصدر سابق، ص: 301.

² - كرم يوسف، مرجع سابق، ص: 46.

وفي هذه المرحلة جاء المسيح ليفتدي البشرية " وبالمسيح ينتهي التمايز السياسي بين المدينتين، فتختلطان من جديد وتعود كل منهما وحدة معنوية لها أعضاء في الإنسانية جمعاء.

فالمدينة السماوية هي جماعة المختارين في الماضي والحاضر والمستقبل، وكما أنه وجد صالحون مختارون قبل مجيء المسيح وتكوين الكنيسة، يوجد الآن خارج الكنيسة، بل عداد مضطهديها، مختارون مستقبليون يخضعون لها قبل مماتهم، ويوجد في الكنيسة كثيرون لن يكونوا في عداد المختارين، ولكن الكنيسة هي الجماعة البشرية التي تعمل على بناء المدينة السماوية".¹

- وهكذا فالمدينتين منذ بداية التاريخ وعبر مسارهما اختلطا تارة، وتمايزتا تارة أخرى بهذا الشكل:



¹- كرم يوسف، مرجع سابق، ص: 46.

وهكذا وفي النهاية، فإن حركة التاريخ، كانت خطوة بخطوة مرسومة بحكمة من قبل خالق عظيم، فالله خلق العالم و ألقى عليه عنايته منذ بداية الخلق إلى آخره، مروراً بالعديد من الأحداث التي كانت أساساً في تشكل التاريخ عبر مسار المدينتين منذ تشكلهما في البدء مروراً بتعاقب الأجيال المختلفة من آدم إلى آخر نسله، إذ كانت المدينتين مختلطتين من آدم إلى ابراهيم وبعد ابراهيم تمايزتا لتختلطا من جديد بمجيء اليسوع مخلص لبشرية، وستستمران في حركتهما في نظر القديس أوغسطين إلى نهاية العالم بظهور المسيح المنتظر مرة أخرى.

المبحث الثالث: نهاية التاريخ

لكل بداية نهاية بطبيعة الحال، ولأن للتاريخ عند القديس أوغسطين بداية فإن له نهاية كذلك، فالتاريخ بدأ بخلق الله لآدم مروراً بأهم الأحداث وصولاً إلى ولادة المسيح الذي كان الحدث المحوري في التاريخ، ولادة المسيح كانت مترتبة من قبل الشعب المبعوث لهم، لكن مجيئه لم يدم طويلاً، ليُرفع بعد ذلك إلى السماء ويُنتظر عودته مرة أخرى في الدنيوية الأخيرة في نهاية التاريخ.

- فكيف ستكون هذه النهاية؟

ترتبط نهاية التاريخ بفكرة الدينونة، لكن قبل التحدث في هذه الفكرة، كان لابد أن نتطرق إلى عنصر مهم، وهو فكرة الوحدة الإنسانية أو العالمية.

أولاً: الوحدة الإنسانية (العالمية)

لقد حاول القديس أوغسطين أن يرسم لنهاية مسار التاريخ الذي ذُكر من قبل، ولأحداث التاريخ المتوالية، فهو يرى أن التاريخ خط مستقيم منتهي أي له خاتمة، ولتحدث عن هذه الخاتمة، لابد لنا من التطرق إلى فكرة العالمية المسيحية، لأن تاريخ المسيحية إنما هو مجموعة من الأجيال التي تعاقبت وراء بعضها جيلاً بعد الثاني، ابتداءً من آدم عليه السلام الإنسان الأول الذي خلقه الله في هذا العالم واحداً وحيداً لينحدر منه باقي البشرية وبنو الإنسان عبر الزمان، يقول أوغسطين: "كل الجنس البشري أصله إنسان واحد خلقه الله في البداية"¹، كان هذا كأول إشارة عن العالمية المسيحية، فمن مخلوق واحد انحدرت كل البشرية وكان هذا رمز واضح للوحدة البشرية في آدم "فقد خلقه وحيداً ومنفرداً، لا ليتركه في عزلة بعيداً عن كل تجمع، إنما ليغرس فيه بشكل أعمق الوحدة الاجتماعية والرابطة الودية التي تأتي من رابطة القرابة التي تربط بين كل البشر من خلال الحب أكثر مما تأتي من التشابه في الطبيعة، ولذلك لم يُرد خلق المرأة رفيقته مثل ما خلق الرجل بل خلقها منه حتى ينحدر الجنس البشري من إنسان واحد"².

¹ - نقلاً عن: الخضيرى زينب محمود، مرجع سابق، ص: 156.

² - نقلاً عن: المرجع نفسه، ص: 157.

من قول أوغسطين هذا ندرك أن الحب هو أساس الوحدة الإنسانية، لكن هذا الحب تبدد في قلب الإنسان الأول آدم فارتكبت الخطيئة وأصبح آثماً لينتقل إثمه هذا إلى كل البشرية من بعده، إذ " جاء في علم اللاهوت النظامي: إن للبشر أصلاً واحداً، أي ان جميعهم متناسلون من رجل وامرأة، اسم الرجل (آدم) ومعناه انسان، واسم المرأة (حواء) وسميت بذلك لأنها أم كل حي (...). وأنه لما كان الجنس البشري كله متناسلاً منهما، سقط بسقوطهما بدليل قول بولس: « بإنسان واحد دخلت الخطيئة إلى العالم، و الموت نتيجة تلك الخطيئة اجتاز إلى كل البشر» وقيل: « إن الله خلق من دم واحد كل أمة من الناس»¹.

وبهذا فإن الجميع سواء أكانوا خيرين أو أشرار كتب عليهم أن يلطخوا بعار الخطيئة.

فكان لأبناء آدم أن ورثوا عليه ذلك، اذ أخطأ قايين في حق أخيره هابيل ليظهر لنا علمين، فبهما انشقت الإنسانية لتضيق بذلك الوحدة الإنسانية، وما يمثل اختفاء هذه الوحدة هو تعدد اللغات بعد أن "كان البشر جميعهم يتكلمون لغة واحدة ثم غضب الله منهم عندما بنوا برجاً ترتفع قمته للسماء تحدياً له، التي تحدت الله هي بابل وفقاً لما جاء في الكتاب المقدس في سفر التكوين (...). ان بابل معناها الخلط، والخلط عند أوغسطين هو التشتت وجوهره الانقسام والتعدد الذي يتناقض والوحدة"².

ولتحقيق هذه الوحدة مرة أخرى، بعث الله السيد المسيح ليفتدي البشرية ويكون مخلصاً لها " فبظهور السيد المسيح ومع انتشار المسيحية انتهى التمايز و التناقض بين المدينتين، ومن ثم وجب أن تتم الوحدة"³.

وإعادة "الوحدة البشرية عند القديس أوغسطين تكون بتأسيس كومونولث مسيحي، أي مجموعة الأمم المسيحية (...). إذا اعتبر القديس أوغسطين المسيحية ديانة كونية عالمية شاملة ستتحقق في الكنيسة العالمية التي يتزأسها السيد المسيح عند مجيئه"⁴، كمخلص للبشرية في شعب اليهود " فقد تبين أن اليهود كانوا يؤمنون بمخلص منقذ ينقذهم مما هم فيه من الضعف والانهيار الذي صابهم خلال أسرهم وخضوعهم للإمبراطوريات الثلاث الآشورية فالبابلية فالرومانية، ولم يؤمن اليهود بالمسيح لأنه لم تتوافر فيه ما يرغبون منه (...). أما الذين آمنوا به فإنهم آمنوا به كمخلص منقذ، ولكن بنوع آخر يختلف عن الخلاص الذي كان يؤمن به اليهود لذلك

¹ - عجيبة أحمد علي، مرجع سابق، ص: 73.

² - الخضير زينب محمود، مرجع سابق، ص: 107.

³ - مصطفى النشار: فلسفة التاريخ، (شركة الأمل، القاهرة، ط1، 2004)، ص: 75.

⁴ - مزواد نسبية، مرجع سابق، ص: 108.

فإن للخلاص المسيحي نشأة أخرى¹، ستكون في المرحلة السابعة من المراحل التي ذكرها من قبل أوغسطين في مراحل مسار التاريخ السبعة وهي الحقبة التي تمثل النهاية للمسار التاريخي، وفيها يظهر المسيح من جديد بقيامته، ويسمي المسيحيون هذه المرحلة بمرحلة الدينونة، فكيف تكون هذه الدينونة؟

ثانياً: الدينونة

بعد أن بعث الله عيسى إلى بني إسرائيل، هناك من آمن به وهناك من عارضه، فتعرض للتعذيب وصُلب من قبلهم، ليرفع الله روحه إلى السماء، لكنه لم يموت، بل سيعود يوماً ما لينقذ البشرية، ويجازي الأشرار لقول الكتاب المقدس: "ومتى جاء ابن الإنسان في مجده وجميع الملائكة القديسين معه، فحينئذ يجلس على كرسي مجده، ويجتمع أمامه جميع الشعوب، فيميز بعضهم من بعض كما يميز الراعي الخراف من الجداء، فيقيم الخراف عن يمينه و الجداء عن اليسار، ثم يقول الملك للذين عن يمينه: تعالوا يا مباركي أبي، رثوا الملكوت المعد لكم منذ تأسيس العالم، لأني جعت فأطعمتموني، عطشت فسقيتموني، كنت غريباً فأويتموني"².

وبهذا النص الذي ورد في الإنجيل، فإن يسوع عيسى في نهاية التاريخ سيظهر من جديد للحساب إذ "يعتقد النصارى في الحساب والجزاء لكل البشر، ويطلقون على موقف البشر للحساب والجزاء الدينونة، ورد في قاموس الكتاب المقدس تحت كلمة دان - يدين - دينونة، ما نصه: «تطلق هذه الكلمات على حكم الله على الناس بحسب أعمالهم»، وقد أعطيت الدينونة للرب يسوع المسيح فهو الديان الذي يقف أمامه جميع البشر لكي يعطوا حساباً عن أعمالهم في الجسد خيراً كانت أم شراً، وهذه الدينونة عامة وشاملة"³.

وبالعقاب الذي يسلط على المتمردين سيفوز أبناء مدينة الله بالسعادة الأدبية، ويعاقب كل من تمرد وعصى الله وسار في طريق الشيطان.

¹ - عجيبة أحمد علي، مرجع سابق، ص: 76.

² - الكتاب المقدس: إنجيل متى: 25/31-36.

³ - فرج الله عبد الباري: يوم القيامة بين الإسلام والمسيحية واليهودية، (دار الآفاق العربية، القاهرة، ط1، 2004)، ص: 211.

فما كان ظهور المسيح من جديد إلا ليتوقف المفسدين عند حدهم، فالعهد الأخير في نظر أوغسطين كان عهد التدهور والانحطاط الخلقي الذي تفاقم الحد حتى كادت مدينة الله تنزل، فإله قد أرسل ابنه المسيح مرة أخرى لإنقاذ البشرية الخيرة، سكان مدينة الله، وهكذا تتغلب مدينة الله على مدينة الأرض بفضل السيد يسوع، ليستقر العالم، ويستريح الله بأن ينال كل واحد جزاءه، فالخيرين سينعمون بالسعادة الأبدية، لتكون بذلك نهاية التاريخ عند أوغسطين الذي يقول: "هناك سنكون في السلام وسوف نرى ونحب، سوف نحب ونسبح، ذلك ما سيكون في النهاية دون نهاية وأية نهاية لنا تكون سوى الوصول إلى الملكوت الذي لا نهاية له"¹، هذا الملكوت الذي لا يضم سوى المسيحيين لا غير، الذين كانوا دائما مع الله مطيعين لأوامره، مخلصين للدين المسيحي وللكنيسة، مع هؤلاء فقط ستتحسد مدينة الأرض في آخر الزمان على أرض الواقع لتنتقل بعد ذلك مع المسيح إلى أرض الخلود أين سينعمون بالسلام الأبدى والسعادة الحقيقية، وبهذا " فإن اليوم الآخر هو يوم اكتمال مدينة الله، أي هو نهاية التاريخ وبدأ الأبدية"².

وفي النهاية، هكذا إذن كان تصور القديس أوغسطين للحقبة الأخيرة من التاريخ، فالنهاية ستكون هي المرحلة السابعة من المراحل التي ذكرها من قبل في مسار التاريخ والتي تتمثل في ظهور المسيح من جديد لأن العالم كلما تقدم في الزمن زاد انحطاطه، فيتدهور الاخلاق في آخر الزمن، سيرسل الله عيسى بن مريم من جديد ليكون مخلصا للبشرية مرة أخرى، فينقذ مدينة الله، ويجازي سكان هذه المدينة بالخلود والسعادة دائما وأبدا.

¹ - القديس أوغسطين: مدينة الله، مج3، مصدر سابق، ص: 414.

² - الخضيرى زينب محمود، مرجع سابق، ص: 10.

خلاصة الفصل:

وفي نهاية هذا الفصل يمكن أن نلم بالتصور الأوغسطيني حول التاريخ وما احتواه من أحداث ميزته طيلة التطور الزمني، فقد ابتدأ التاريخ بخلق آدم مروراً بحادثة الخطيئة إلى بناء وتشكل المدينتين على يد هايبيل وأخيه قايين ولدا آدم، مروراً بتطور هتين المدينتين عبر سلالتين، احدهما ممثلة لمدينة الله أصلها شيت الذي رزق به آدم بعد مقتل هايبيل، و نسل منحدره من قايين ممثل مدينة الأرض، مروراً بمجموعة من الأحداث التي اعتبرت محورية في مسار التاريخ، وصولاً إلى نقطة النهاية في التاريخ وهي بقيامه المسيح في آخر الزمان لإنقاذ مدينة الله والانتقال بها إلى عالم الديمونة، أين يكون السلام الأبدي.

من هذا التخطيط التاريخي في فكر القديس أوغسطين يمكن أن نلاحظ مدى تأثره بالديانة المسيحية، وذلك بسيادة الرؤية الدينية على فلسفة التاريخ عنده، حيث قدم رؤيته الفلسفية للتاريخ وفقاً للتصور المسيحي، هذا ما جعل الكثيرين يعتقدون أن أوغسطين قد كتب في كتبه مدينة الله لاهوتا للتاريخ لا فلسفة للتاريخ.

خاتمة

- تتضمن هذه الخاتمة أهم النتائج التي توصلت إليها في البحث والمتمثلة في:

ان بداية العالم كانت بخلق الله لهذا الكون من سماء وأرض وشمس وكواكب، وحتى الإنسان، فكان ان صدر عن الله كل ما هو خير، لأن الله خير في ذاته، والكون فيض عن خيريته هذه، فكان بذلك الإنسان خيراً بطبيعته وقد عاش في الجنة، ذلك المكان المقدس، لكن هذا لم يدم طويلاً، فسقط إلى الأرض بسبب خطيئته.

الخطيئة، تلك التي حالت بين الإنسان وربّه، التي حولت الإنسان مما كان عليه إلى الأسوء، والخطيئة في اعتقاد أوغسطين قد كانت بسبب إرادة الإنسان الحرة، فبعد أن كانت إرادته خيرة، تحولت إلى إرادة شريرة بعصيان آدم لربه، وأكله من الشجرة التي حرمت عليه، بسبب اغواء الشيطان لحواء، بأكلهما بأكلهما منها سيمتلكا صفة الإلهية، فلطالما كان الشيطان عدواً لله، فمنذ أن تغلغل الحسد في قلبه، تحول عن ربّه وأصبح ظالماً مستبداً بدلاً من ان يكون خادماً أميناً ومطيعاً له، فكان بذلك أن طرده الكبرياء والغرور من الفردوس الروحي، ليكون عدواً للإنسان ساعياً إلى التغلغل في حواسه، هدفه تبيد علاقة الإنسان بربه، فكان ان حقق ما سعى إليه، إذ تمكن من إغواء الإنسان الأول فشع بذلك حب آخر في قلب آدم، وتبدد حبه لله، ليختار بإرادته وبكل حرية الأكل من ثمار تلك الشجرة، فكان بذلك أن عقابه الله بأن اخرجه من جنته، ولعنه، ليعيش بذلك شقياً في الأرض.

وبهذا كانت الخطيئة الأولى التي أدت إلى سقوط البشرية، فبعد أن كان الإنسان في المدينة السماوية أسقطه الله إلى الأرض عقاباً له عن إثمه، وعصيانه لربه.

خاتمة

بسقوط الإنسان في الخطيئة أدخل الشر إلى هذا العالم، وتبددت الأخلاق، وانتشر الفساد، وساد الظلم والجور ليعيش الإنسان على الأرض في شقاء وعذاب، تملأ حياته الأمراض والآلام والمتاعب والحروب والصراعات لتظهر لنا بذلك السلطة الوضعية، وهنا يبرز الفكر السياسي للقديس أوغسطين.

ربط القديس أوغسطين فكره السياسي ككل بالديانة المسيحية فقد جاء فكره السياسي كدفاع عن العقيدة المسيحية التي اضطهدت من قبل الرومان، الذين اعتبروا أن اعتناقهم للمسيحية كان السبب الرئيسي لسقوط إمبراطوريتهم وذلك لأنهم تخلوا عن آلهتهم فغضبت عليهم.

عارض أوغسطين وتصدى لهذه الاتهامات، فقدم بذلك أفكارا جديدة في السياسة، فبالنسبة للدولة مثلا، رأى بأن الدولة المتينة هي الدولة المسيحية، وأن الحكومة الصالحة هي التي تهتدي بتعاليم الديانة المسيحية الفاضلة التي تقومها فضائل التسامح والمحبة والأخوة، التي من شأنها أن تحقق السلام والأمان، وأنه بالإيمان المسيحي يمكن أن يسمو الانسان إلى مدينة الله، الأرض الموعودة، الخالدة، ويرى أن المدن الأرضية ما هي إلا مدن زائلة كالإمبراطورية الرومانية وغيرها من الحضارات والخلود إنما يكون من حليف المدينة السماوية وبالتالى الحضارة المسيحية.

أما العدالة: فقد رأى أوغسطين في ذلك، ان كل ما يحل بالإنسان الساقط إنما هو بعدل من الله فمن العدل الإلهي تشريع الحروب والملكية ونظام الرق، لأن البشرية وصمت بعار الخطيئة، والإنسان المخطف يعاقب على خطيئته ويحاسب عليها، فكان بذلك أن شرع أوغسطين للحرب والملكية ونظام الرق.

ورأى بضرورة تطبيق العدالة المسيحية، ولتطبيق هذه العدالة، لابد من تطبيق القانون، والقانون في هذا العالم اثنان، احدهما مرتبط بالمدينة السماوية والثاني بالمدينة الأرضية، هذا القانون الذي جاء ليضبط الإنسان المتمرد الآثم، لكن رغم ذلك فلا يمكن تحقيق العدالة الحقة إلا بالقانون الصادر عن الله، فهو القانون الأمثل.

خاتمة

عالم أوغسطين التاريخ، إذ يرى أن بداية التاريخ كانت مع بداية الخلق وتشكل المدينتين مع وُلدي آدم، هايبيل وقاين، فهابيل قد مثل مدينة الله، وقاين قاتل أخيه بنى مدينة الأرض.

أما حركة التاريخ، فقد كانت بتطور هتين المدينتين عبر الأجيال المختلفة التي ظهرت خلال ذلك، فمن آدم إلى إبراهيم كانتا المدينتين مختلطتين، ومن إبراهيم إلى ظهور المسيح تمايزتا وبعد ظهور المسيح عاودتا الاختلاط لتتواصل حركة التاريخ بعناية من الله، إلى أن تصل إلى آخره، حين يقوم المسيح من جديد، ويُبعث لتخليص البشرية في آخر الزمان، لأنه زمن تدهور سينتشر فيه الفساد، وبظهور يسوع سيعاقب الإنسان الآثم، وسيفوز من كان مع الله بالسعادة والخلود.

فالتاريخ عند أوغسطين كان عبارة عن خط مستقيم منتهي، بدايته تشكل المدينتين من قبل هايبيل باني المدينة السماوية، وقاين باني المدينة الأرضية، أما حركته فكانت بتطورها عبر الزمان من خلال تعاقب الأجيال المنحدرة من هايبيل وقاين، والمنحدرة أساسا من آدم، وصولا إلى نهاية التاريخ بقيامة المسيح عيسى في آخر الزمان.

قائمة المصادر والمراجع

قائمة المصادر والمراجع :

- الكتاب المقدس (الإنجيل)

أولاً: المصادر

1. القديس أوغسطين: قيامة المسيح وقيامتنا، ترجمة وإعداد: الأنبا إيساك، (مكتبة السيدة العذراء، الإسكندرية، دط، 1998).
2. —: الاعترافات، تر: برقي شاكرا، (دار النشر الأسقفية، القاهرة، ط5، 2005).
3. —: إقامة لعازر- لباس العرس، ترجمة وإعداد: مرقوريوس الأنبا بيشوي، (مكتبة النسرة، مصر، ط1، 2007).
4. —: مدينة الله، تر: يوحنا الحلوة، (دار دمشق، بيروت، ط2، 2007).

ثانياً: المراجع

1. ابو زهرة محمد: محاضرات في النصرانية، (دار الفكر العربي، القاهرة، ط3، 1961).
2. أحمد محمود صبحي: في فلسفة التاريخ، (دار المعرفة الجامعية، مصر، دط، 1997).
3. إميل برهيه: الفلسفة الهلنستية والرومانية، تر: جورج طرابيشي، (دار الطليعة، لبنان، ط1، دت).
4. بدوي عبد الرحمان: فلسفة العصور الوسطى، (وكالة المطبوعات، دار القلم، الكويت، لبنان، ط3، 1979).
5. برتراند راسل: تاريخ الفلسفة الغربية، تر: زكي نجيب محمود، (لجنة التأليف والترجمة، مصر، ط2، 1968).
6. بيير سمالي: المؤرخون في العصور الوسطى، تر: قاسم عبده قاسم، (دار المعارف، القاهرة، ط2، 1984).
7. ترانثي وماركوس: مقالات في فلسفة العصور الوسطى، تر: ماهر عبد القادر محمد، (دار المعرفة الجامعية، عمان، د.ط، 1997).

8. جلسون آتين: روح الفلسفة المسيحية في العصر الوسيط، تر وتع: إمام عبد الفتاح إمام، (مكتبة مدبولي، الإسكندرية، ط3، 1996).
9. جيون ادوارد: اضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها، تر: محمد علي ابو درة، مر: أحمد نجيب الهامش، (الهيئة المصرية للكتاب، مصر، ط2، 1997)، ج1.
10. حافظ أشرف: معالم الفكر الأوروبي في العصر الوسيط، (دار طيبة، القاهرة، ط1، 2004).
11. حسن حنفي وآخرون: تطور الفكر الفلسفي، (مطبوعات جامعة الإمارات، الكويت، ط1، 1991).
12. الخضيرى زينب محمود: لاهوت التاريخ عند القديس أوغسطين، (دار الثقافة، القاهرة، ط1، 1996).
13. ديورانت ويل: قصة الحضارة، قيصر والمسيح أو الحضارة الرومانية، (دار الكتاب العربي، لبنان، د ط، 1998، ج3).
14. زروخي اسماعيل: دراسات في الفلسفة السياسية، (دار الفجر، القاهرة، ط1، 2001).
15. زيغور علي: أوغسطينوس، (دار اقرأ، بيروت، ط1، 1983).
16. —: الفلسفة في أوروبا الوسيطة وعصري النهضة و الإصلاح، (دار الحياة، بيروت، د ط، 1998).
17. سعد جورج: تطور الفكر السياسي في العصور القديمة والوسطى، (منشورات الحلبي الحقوقية، لبنان، دط، 2002).
18. سلام موسى: حرية الفكر وأبطالها في التاريخ، (إدارة الهلال، مصر، دط، دت).
19. عبد المجيد عمراني: محاضرات في تاريخ الفكر السياسي، (منشورات جامعة باتنة، باتنة، دط، 1999).
20. عجيبة أحمد علي: الخلاص المسيحي ونظرة الاسلام إليه، (دار الآفاق العربية، القاهرة، دط، دت).
21. فرج الله عبد الباري: يوم القيامة بين الإسلام والمسيحية واليهودية، (دار الآفاق العربية، القاهرة، ط1، 2004).
22. كراس المحرقى: إلهي لماذا خلقتني، (شركة الطباعة المصرية، مصر، دط، دت).

23. —: مشكلة الشر، مراجعة وتقديم: نيافة الأنبا رافائيل، (شركة الطباعة المصرية، مصر، ط2، دت).
24. —: شوكة الخطيئة، (شركة الطباعة المصرية، مصر، ط5، دت).
25. كرم يوسف: تاريخ الفلسفة الأوروبية في العصر الوسيط، (دار القلم، لبنان، د ط، 2003).
26. كلايد تارنر: هذه عقائدنا، (المنشورات المعمدانية، بيروت، د ط، 1972).
27. لودي عبد السلام: صراع أوغسطين، (ناشر، بلد، ط1، 1990).
28. ليو شتراوس جوزيف كروبسكي: تاريخ الفلسفة السياسية، تر: محمود سيد أحمد، مر وتق: امام عبد الفتاح امام، (الجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، د ط، 2005)، ج1.
29. محمد ابراهيم تركي: مدخل إلى الفلسفة المسيحية في أوروبا إبان العصر الوسيط، (دار الكتب القانونية، القاهرة، د ط، دت).
30. محمد عبده: الاسلام والنصرانية بين العلم والمدنية، تقديم: برهان عليون، (موفم، الجزائر، د ط، 1987).
31. محمد عويضة كامل محمد: أوغسطين فيلسوف العصور الوسطى، (دار كتب العلمية، بيروت، ط1، 1993).
32. محمد فضل الله اسماعيل: نماذج من المشكلات الفلسفية، (مكتبة بستان المعرفة، الإسكندرية، د ط، 2001).
33. —: فلسفة السياسة، (دار الجامعة الجديدة، الإسكندرية، د ط، 2008).
34. محمد مهنا نصر: في تاريخ الأفكار السياسية وتنظيم السلطة، (المكتب الجامعي الحديث، الإسكندرية، د ط، 1999)..
35. محمود سعيد عمران وآخرون: النظم السياسية عبر العصور، (دار النهضة العربية، بيروت، ط1، 1999).
36. مصطفى الفوال صلاح: سوسيولوجيا الحضارات القديمة، (دار الفكر العربي، القاهرة، ط2، 1982).
37. مصطفى النشار: تطور الفلسفة السياسية من صولون حتى ابن خلدون، (الدار المصرية السعودية، القاهرة، د ط، 1982).

38. —: فلسفة التاريخ، (شركة الأمل، القاهرة، ط1، 2004).
39. هنري إيرينييه مارّو: القديس أوغسطينس والأوغيسطينية، تع: سعد الله سميح حجاج، (دار دمشق، بيروت، ط1، 2007).

ثالثا: الموسوعات و المعاجم

الموسوعات:

1. بدوي عبد الرحمان: موسوعة الفلسفة، (المؤسسة العربية، بيروت، ط1، 1984، ج1).
2. لالاند أندريه: موسوعة لالاند الفلسفية، (منشورات عويدات، بيروت- باريس، ط2، 2001)،
مج1.

المعاجم:

1. ابن منظور: لسان العرب، (دار المعارف، القاهرة، دط، 1119هـ، ج24)، مج3.
2. جورج طرايشي: معجم الفلاسفة، (دار الطليعة، بيروت، ط3، 2006).
3. صليبا جميل: المعجم الفلسفي، (دار الكتاب اللبناني، بيروت، د ط، 1982، ج1).
4. الفيروز آبادي: القاموس المحيط، (مؤسسة الرسالة، لبنان، ط8، 2005).
5. محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي: مختار الصحاح، (مكتبة لبنان، بيروت، د ط، 1919).
6. محمد بن اسحاق النديم: الفهرست، تحقيق: رضا تجدد، (دار المعرفة، بيروت، دط، 1978).
7. مراد وهبة: المعجم الفلسفي، (دار قباء الحديثة، القاهرة، د ط، 2007).

المذكرات

1. مزواد نسيبة: فلسفة الحضارة في فكر القديس أوغسطين، (مذكرة مقدمة لنيل درجة ماجستير في
فلسفة الحضارة، جامعة باتنة، 2011-2012).

قائمة المحتويات

قائمة المحتويات :

صفحة	الموضوع
أ	مقدمة
الفصل الأول : الخطيئة والأخلاق	
06	تمهيد
07	المبحث الأول: فكرة الخلق
07	أولاً: الخلق من العدم
08	ثانياً: كيفية الخلق
10	ثالثاً: خلق الملائكة (جميعهم على طبيعة خيرة)
12	المبحث الثاني: مفهوم الخطيئة
13	أولاً: معنى السقوط
14	ثانياً: تعريف الخطيئة.
16	ثالثاً: الخطيئة عند أوغسطين
19	المبحث الثالث : الحرية والإرادة
19	أولاً: من إرادة خيرة إلى إرادة شريرة
20	ثانياً: الكبرياء والغرور اساس السقوط
23	المبحث الرابع : الخير والشر
23	أولاً: الخير
24	ثانياً: الشر
27	خلاصة الفصل

الفصل الثاني : الخطيئة والسياسة	
29	تمهيد
30	المبحث الأول: الدولة
30	أولا: مدينة الله ومدينة الأرض
31	ثانيا: الدولة الرومانية واضطهادها للمسيحية
33	ثالثا: دفاع أوغسطين عن المسيحية
37	المبحث الثاني: العدالة
37	أولا: مفهوم العدالة
39	ثانيا: مشروعية الحرب
40	ثالثا: مشروعية الملكية ونظام الرق
42	المبحث الثالث: القانون الإلهي والقانون الوضعي
42	أولا: القانون الإلهي
43	ثانيا: القانون الوضعي
45	خلاصة الفصل
الفصل الثالث: الخطيئة والتاريخ	
47	تمهيد
48	المبحث الأول: مُقَدِّمَةُ التاريخ عند القديس أوغسطين
48	أولا: منهج أوغسطين في التأريخ للأحداث (التأويل)

قائمة المحتويات

49	ثانيا: بداية التاريخ ببداية تشكل المدينتين
53	المبحث الثاني: حركة التاريخ
53	أولا: العناية الإلهية في التاريخ
54	ثانيا: مسار حركة التاريخ
62	المبحث الثالث: نهاية التاريخ
62	أولا: الوحدة الإنسانية (العالمية)
64	ثانيا: الدينونة
66	خلاصة الفصل
68	الخاتمة
72	قائمة المصادر والمراجع
77	فهرس المحتويات